

إبداعات

امرأة تعزف على الأسلاك الشائكة

قصص

حسن غريب أحمد



الهيئــة العامة
لقصور الثقافة

الهيئة العامة لقصور الثقافة
إبداعات / (أسبوعية) / العدد : ١٦١
امرأة تعزف على الأسلاك الشائكة / قصص / حسن غريب أحمد
الطبعة الأولى
رقم الإيداع / ٢٣٩٤ / ٢٠٠٣
I.S.B.N: 977 - 305 - 355 - 5
المراسلات : باسم رئيس التحرير
على العنوان التالى ١٦ أ ش أمين سامى - القصر العينى
رقم بريدى : ١١٥٦١

إهـــــداء

إلى المتفردة .. التى سرقت أصغر ذرات الحلم.

أهديها بعضًا هو كلى.

خطوات من هناك !!

وقع خطواتك كان واضحاً جداً ليلة البارحة.. حتى إن النوم قد هجر جفنى، لم تكن وحدك؛ فجلبة الخطوات الأخرى مع الصرير المصاحب لها أكد لى ذلك.. جمدت على سريرى وأنا أسمعكم تجتازون حديقة المنزل، صوت فتح الباب زادنى رعباً «إنك تقترب، فالممر المؤدى إلى حجرتى ليس طويلاً».. أغمضت عينى لا أدرى كيف طفرت الدموع من بين جفنىّ اللذين كادا أن يلتحما ببعضهما.. لا أدرى كيف بكيت؟ لم أكن أعى أننى أبكى.. كل ما وعيته أنك أتيت.. كيف سأستقبلك أو كيف ستستضيفنى؟ بل ما الزاد الذى أستطيع حمله قبل أن أصير بين ذراعيك ؟ يا إلهى لم يعد هناك متسع من الوقت .. بدت لى دقائق حياتى صورة هزيلة لا معنى لها.. أصابعى المتشابكة فوق صدرى تحجرت.. قلبى لا أدرى إلى أى قعر قذف بنفسه..

لسانى كان يتلفظ عبارات الضراعة.. ترامت هنا وهناك .. لم أستطع حينها أن أحدد إن كانت تصدر عنى أم لا؟!! أحسست أن كل جارحة فىّ تحولت إلى توسلات صارخة.. الأرض مادت من تحتى بشدة.. وها قد وصلت حجرتى فماتت الجلبة على عتبتها.. ها أنت تدنو يلفك الوجوم.. الآن أنفاسك بدأت تلفحنى.. لا أجرؤ على فتح عينى لأراك لكننى أشعر بك تماماً تحوم حول سريرى.. تقف عن يمينى.. ستمد ذراعيك الآن نحو وجهى.. يا إلهى.. أصابعى المتشنجه كادت تتكسر وهى تتقلص بشدّة فوق ضلوعى.. لم يمد ذراعيه بعد.. ترى هل ذهب؟ لا .. لا .. إننى أسمع حثيث خطواته على السجادة.. عاد ليقف عند رأسى أشعر بهذا تمامًا.. يا إلهى ستلسعنى لمسات أنامله الآن.. لا محالة.. ما هذا؟ إنه لا يأتى بأى حركة، لكنه لا يزال عند رأسى.. أيعقل أنه يتأملنى؟.. آه ما أصعب هذه اللحظات.! نعم ربما تمنيتك أحيانًا، وأعترف أنى آنست فى نفسى ترحيبًا بك فى الأيام الأخيرة الماضية.. لكننى لم أتوقعك الآن أو على الأقل ليس بهذه الطريقة.. ما أتعسنى وأنا أشعر بك قائمًا عند رأسى.. أنتظر وأتخيل برعب كيف ستبدأ؟ لكننى لا أستطيع

التخمين.. كيف ستنتهي؟.. لازلت ساكنًا.. ما الذى تفكر فيه
وأنت تنظر إلىّ يا ترى؟ يا إلهى.. ها أنت تنحنى فوق رأسى..
أنفاسك الباردة تحرقنى.. جداول العرق على جسدى تبعثرت
فرَقاً منك.. أسنانى غارت فى فكى لشدة ما اصطكت فزعاً..
قسوة نظراتك اخترقت جسدى.. سحقت عظامى.. لازلت منحنياً
فوق رأسى تستمتع بتعذيبى.. لا .. يا إلهى لم أعد أحتمل..
خلصت أصابعى المتشابكة من بعضها بصعوبة.. رفعتها فوق
رأسى لأدفعه عنى.. فتحت عينى.. ألجمتنى المفاجأة.. حاولتُ
النطق.. لم أستطع.. أدركت أننى بتّ طوال الليل أصارع طيفًا
ظننته الموت!

نشرت بجرية «أخبار الأدب» ١٨ يوليو ١٩٩٩.

كان لقاؤه مع كريستين مفتعلاً جافا كجفاف الصحراء.. الوحدة فظيعة.. اتجه نحو فراشه ليس كدفء فراشه في العريش.. أغمض عينيه.. حدق في السقف، تشابكت في ذهنه الصور والوجوه.. تذكر سقف غرفته في العريش.. كان رطباً متآكلاً.. كم كان يكرهه.. ومن أين يأتيه كل هذا الشوق؟ أيتسع صدره؟ تقلّب مرات.. تنهد بحرقة.. رفع الغطاء عن جسده وأخذ يزرع الغرفة.. مازالت تلك الثغرة التي تفصله عن كريستين تمعن في الاتساع.. النساء هنا مختلفات.. من قال إن النساء كلهن متشابهات؟ ما يراه هنا كائنات مختلفات تماماً.. الثانية عشرة والربع.. ما باله لا يستطيع النوم.. فيما مضى كان يغفو سريعاً.. بمجرد أن يلامس جسده فرشة نومه الإسفنجية العتيقة.. لم يكن ينتظر مسلسل السهرة.. لا يذكر أنه شاهده

ذات مرة.. كان يرجع إلى بيته متعباً منهكاً.. بعد يوم عمل شاق.. لم يكن يستسيغ تلك المشقة.. كانت عصية على شبابه المتحفز.. سرعان ما جاء البديل.. هاجر مع من هاجر.. الثانية بعد منتصف الليل.. حالة من الجنون تكاد تعصر عقله.. رغبة بكاء مجنونة تعربد فى أعماقه.. خوف.. حيرة.. نكران.. ومشاعر متعارضة تصطنع فى نفسه.. كريستين لم تعد بعد.. النساء هنا غريبات الأطوار.. يمقتهن.. يحلم ببيت دافئ وزوجة تشاطره مر الحياة وحلوها.. بمداعبة طفل تزركش أيامه.. لكن كريستين بعيدة كأرض العريش.. وحلمه وردة أرجونية تساقطت بتلاتها وتبعثرت رائحتها.. الخامسة صباحاً.. وكريستين لم تعد بعد.. يعاوده رجع كلماتها.. تزوجتنى لتحصل على الجنسية.. لا تتدخل فى شئونى الخاصة.. عقارب الثوانى تتتابع برتابة «تك.. تك.. تك».. يكاد رأسه ينفجر.. الدقائق مشحونة.. كريستين لم تعد بعد.. العقارب الحمقاء تواصل سيرها غير عابئة.. أين تكون؟ تساءل بحيرة.. رغم الثغرة التى تفصل بيننا إلا أننى أبقى الزوج.. أطرق، سيكون لى معها شأن آخر.. عندما تعود سأجعلها تعيش كما أريد لا كما تريد.. السابعة صباحاً..

الدقائق تسير حثيثة.. يطل من النافذة تارة ويتذكر وجه أمه تارة
أخرى.. يشرب قهوة الصباح.. يطالع الصحف ويدير المذياع..
ينتظر عودة كريستين.

نشرت بجريدة «أخبار الأدب» ١١ يناير ١٩٩٨.

فيضاً من الشتاء !!

كانت برعمة تداعبها النسائم وتدللها العصافير.. تغمض عينيها بخجل كلما لاحت لها عيون النجوم التى تراقبها وهى تكبر.. تبدى إعجابها بأريجها الذى يزداد روعة.. تضم عبيرها بين حناياها لئلا يبعثره النسيم.. خبأت ألوانها الزاهية عن عيون النجوم.. بدأ يشتد عودها فى بستانها الجميل.. بات كل من فى البستان يأنس إلى الوردة النضرة ذات الأوراق الغضة المتوردة.. بات لطف أنفاسها يجذب من حولها حتى أصبحت مصدرا للبهجة التى لا تكمل إلا بها.. أما صاحب البستان فقد آثرها على جميع أزهاره.. وغدت الأقرب إلى روحه ونفسه.. قد ارتاحت لصفاء السماء.. وسعدت بقطرات الندى التى تنثره ساعاته الأخيرة فتنعشها.. فى إحدى الليالى لاح لها القمر أصفى من المساء.. لامستها أشعته الرقيقة.. رأت فيه شيئًا.. لم

تكن تراه فى النجوم.. كان مختلفا تماما.. متميزا تماما.. هكذا بدا لها.. كان شيئاً لم تستطع أن تتجاهله.. رغماً عنها انجذبت إليه.. بَريقُه الهادئ أعجبها.. ليلة بدأت تأسرها أشعته.. انساب نوره فى شرايينها.. غزا جذورها.. لم تتمكن من الإفلات.. بكت كثيرا.. سمعها ومسح بحنان دموعها.. همس لها: «عبيرك انتزعنى من سمائى.. هتك الغيوم التى حجبتنى عنك.. فجئت أرويك بدفئى وأفرش لك قلبى وسادة فضية لترتاحى إليها، ولتعلمى أننى أحبك».. لم تصدق الوردة ما سمعت.. رفعت رأسها إليه.. فإذا بها ترى أحلامها منقوشة على صفحته.. وثقت به ووهبته عبيرها.. أهدته ألوانها البديعة.. منحته حتى أنفاسها.. أحبته أسمى ما يكون الحب.. عشقت فيه حنانه الذى ينسيها قسوة الزمان.. عشقت فيه لهفته كلما احتاجت إليه.. عشقت صدقه وثقته بها وبنفسه.. عشقته باسما يداوى جراحها.. عشقته بكل ما فيه.. وأحبته كما هو.. وغدا عالمها الوحيد الذى لا يمكنها العيش بدونه.. غاب القمر لم يعد شىء يضىء عالمها بعد غيابه.. بكت شوقا إليه.. حسب من حولها أن دموعها قطرات من الندى زادتها جمالا.. هتفت تناديه.. لكن

صوتها لم يصل إليه أبدًا.. أخذت تنادى طيفه لكن مواويلها تكسرت جميعا تحت أقدام القدر.. أخذت ترنو بصمت إلى السماء فتصفعها الغيوم الشرسة كل ليلة.. لقد غزا الشتاء سماءها فى غير موعده.. راحت رياحه تلهو بأيامها.. وتعبث بأحلامها.. وتخرج حتى أنفاسها.. فى إحدى الليالى أقام الشتاء حفلة عزفت فيها الرعود وقصف البرق بكثير من شراراته.. سخروا من دمائها لم يعبؤوا بها وهى تنحنى على الأرض بوهن شديد وتحرك أوراقها الدامية المهترئة بطريقة غريبة.. خيل للشتاء أنها تخلط بدمها شيئًا ما على التراب.. فسحقها فى الحال.. وبعد زمن رحل الشتاء وأطل الربيع بشمسه ودفئه، واكتست الأرض خضرة وورودا.. وتنفست السماء النور، ثم ارتدى المساء صفاءه وأتى حاملا سلة الندى ليرش الزهور.. تسللت النجوم الشقية تختلس النظرات.. بحثت عن وردتها الأثيرة.. لم تجد منها سوى وريقة ممزقة وكلمات على التراب تقول: «قمرى الغالى: لم يتسع عمرى ليشهد لحظة عودتك، وعندها لا تنتظرنى.. لأنى لن أعود».

اغتصاب وطن

كنت يوماً أرقب رحيل رماح الشمس من أحضان البحر.. الغروب يداعب النخيل ببطء.. سارت فرشاة الألوان بين الأزرق والأحمر والأصفر على لوحتى ومسحت الشاطئ تحاكيه بدقة.. وقفت وإياها، لحظة انبهار جارف.. عند طفلة صغيرة ملائكية الصورة.. تمشى ببطء.. ظننت بها علة.. تسمرت أنامل أقدامها على ضفاف البحر.. حسبتها تحتسى هذا الماء المالح أو تغسل صفحة وجهها الحزين.. لم يدر بخلدى أنها تبكى ويخالط عينيها ماء الشاطئ.. حتى سمعتُ أنيناً كصوت الناى.. حلقت طيور النورس وراحت تحدثها بصمت العشاق.. رحلت طيور النورس وحدث هدوء مثل صمت المقابر.. مضت تناجى الرمال الناعمة، تبنى بيتاً جميلاً وأبراجاً أجمل وغصناً ناعماً نحيلاً.. ترسم على الرمال بأنامل يدها جندياً ودبابة، تمتد أصابع البحر وتختلس

مما تبنى فتبكى.. تمسح وجهها من الدموع الصغيرة بيد كلها رمل.. ركضت تجمع القواقع واستوقفتها أمواج البحر.. فنظرت إلى وجهها وضحكت.. جمعت القواقع القوية وجعلتها تحضن البرج المشيد بحب ضلوعها وماء عيونها.. اكتمل البناء وها هى تدشن فرحتها بالركض تارة والبكاء تارة.. جمعت بقايا الزجاج وجعلت منها حصنا وسورا منيعا.. سحبت قدمى إليها.. وقلت لها : أنت بحق فنانة!! جميلة هى أبراجك.. قالت لى وكل كبرياء العالم فى ثغرها نعم: جميلة ولا أظن أحدا يملك مثلها قط .. هذه مدرستى وبها تعلمت أن أكون طيبة مهذبة.. وهذا مسجد الحى كنا أنا وجدى نذهب إليه كل يوم.. وهذه الدار هى بيتى.. هنا لعبت أختى وسقطت.. وهنا أكلت.. وهنا.. وهذه الأبراج طالما لعبت تحت ظلالها ولطالما داعبتْ أغصان الزهور أنفى.. هذه يا سيدى دولتى الجريحة ووطنى المغتصب.. وهذا غصن داسته الدبابة قبل الجندى.. حينما احتُلت بلدى كنت هنا.. لم أتمنَ أن أملك حفنة من ترابها.. وأخذت بيدها ترابا من المسجد وجعلت تردد «أحبها».. غدا - إن شاء الله - ستعود دولتى.. لقد أنبأنى أبى، ولقد حملت الخبر اليوم طيور النورس.. وتمر الأيام

ويصبح الحلم حقيقة.. أتذكر تلك الطفلة الجميلة التى كانت تلهو على شاطئ الأمنيات وحفيف النخيل.. لم تنس أبدا ما ذكره لها أبوها.. «ترى ماذا تفعل الآن هناك؟! وكيف شاهدت تلك الرمال الحقيقية لأول مرة بعد اغتصاب وطنها؟؟!!!».

نشرت بمجلة «القصة» العدد ٩٢ - إبريل - مايو - يونيه ١٩٩٨



رؤيـة

فى كل مـرة يغـادر فـيـهـا قـريتـه قـاصـداً المدينة يضـع فى حسبانه احتمال رؤيتها مصادفة فى موقف السيارات مثلاً.. تصعد الأتوبيس نفسه الذى يستقله، ورغم أنه ممتلئ بالركاب ستصعد وتقف بجوار مقعده.. ستلتقى العيون فى نظرة خاطفة.. يبقى منها بريق خافت يردد همساً: إنها هى.. وللمفاجأة المرتقبة بفارغ الصبر رنين يشبه رنين الأجراس فى ليل صامت.. يحرك كل المشاعر دفعة واحدة ما بين محبة آفلة لها فى البال جذور وغضب تصاعدت وتيرته طوال أيام الفراق التى لا تحصى بسهولة، ورد الفعل سيكون سريعاً ذا لهجة حانقة، سيدير رأسه فى غيظ لينظر متمعنا على غير عادته فى كل ما يراه من خلال الزجاج ولا يرى شيئاً.. وقد يخطر له فى ارتباكه وتشتت أفكاره أن يقرأ سورة الفاتحة للمرة الثالثة منذ

مغادرته قريته فى أقل من عشرين دقيقة.. مع ذلك لم يكن مرتاحاً فى جلوسه.. هل يقف ويدعوها إلى الجلوس مكانه؟!.. سؤال سيظل يلح عليه مادامت لا تزال واقفة والمسافة لا تزال طويلة، إلا أن الكبرياء الذى سيملك نفسه.. يمنع مثل هذه المبادرة الجريئة من التسلل إليه وفتح طابور مهادنة وضعف فى حصنه الحصين.. لم يكن خياله ليسمح لها بالجلوس.. تنتفى الشهامة.. لم يبادر أى شخص إلى الوقوف ودعوتها للجلوس مكانه.. كما أنه لا توجد محطات ينزل فيها الصواعد والنوازل، كما لو أنهما فى مركب يتهادى، ثم يصدر الموج هدير زوبعة ستقتلع كل ما تصادفه عائما دون مأوى فى العمق.. سيتمنى لو أنهما.. وقفا قبل أن تدق ساعات توقف الزمن العظيم حيث يكون البوح أجمل وأوقع فى النفس.. إذن لما كان هذا موقفا جديرا بلقاء الشقيقين، ولما كانت الرؤية من زوايا العيون.. تختلس النظر إلى الثوب كئيب اللون.. فأصابع اليد التى تختلج كلما أسرع الأتوبيس أو انعطف، ثم تتأملها منتصبة ترى بماذا تفكر الآن؟.. سؤال آخر يخامره ليترك على الوجه دامية ساخنة أتراها تفكر بما أفكر به الآن؟.. وبماذا أفكر أنا ؟.. سيقطب

حاجبيه ويبدأ باللوم والمحاكمة: هى التى بدأت بالجفاء.. سيهم بإخراج سجائره.. ولكنه يتردد.. هنا انحدر به الأتوبيس ليصل إلى آخر محطة.. لم تكن هناك كما لم تكن فى الأتوبيس.

نشرت بمجلة «القصة» العدد ٩٢ - إبريل - مايو - يونيه ١٩٩٨ .

والعيون أيضا تصرخ

انهمر المطر بغزارة فوق رؤسنا ونحن نحمل القرميد بأيدينا المحمرة .. كان بارداً لكن فرحتنا جعلته دافئاً.. الصغار يتسابقون فى صعود السلم حاملين حجارة تكبر أجسادهم النحيلة.. البسمة ترتسم على وجوههم المبتلة بقطرات المطر.. الفتيات والفتيان تعاونوا لحمل الأسمنت والقرميد.. نرى عيون الجيران ترقبنا من خلف الأبواب.. وقفت أتأمل الغرفة التى حمتنا واحتضنتنا وهى تتهدم لتعلو جدران مرتفعة بدلاً من تلك الجدران القصيرة.. لم أستطع فعل أى شىء.. لم أستطع إخراس صوت المطارق الكبيرة وهى تهدم مصاطب حفرة فوقها أقدام وأقدام.. قفزت ولعبت فوقها .. فى كل ضربة كانت تفتت أيامى مع تلك الغرفة ذات الجدران القصيرة.

أخذت أراقب العامل وهو يلملم الحجارة المتكسرة.. شعرت

وكأنما يؤلم ذكرياتي بيديه القويتين.. عندها اندفعت بقوة فارتعدت .. بدأ يراقبني وأنا أمد يدي المرتعشة.. لم أستطع فعل أي شيء.. لم أستطع حمل حتى الفتات.. شعرت بخيانة كبيرة.. أيعقل أن أرمي بأيامي؟!! لا لا أستطيع فعل ذلك.. بدأت أتحسس الحجارة المرمية فوق الأرض.. في كل حجر تتلألأ ذكرى قديمة تخبو بدموع أسقطها فوقها.. لاحت من تحت الأسمنت المتراكم، خطوط اللعبة المرسومة على أرضها.. وبدأ صوت قفزاتنا يطرب أسماعي.. لم أستطع إيقافها رغم ابتعادي عن المكان.. إلا أنني مازلت ألعب وأقفز.. بدأت أرقبهم وهم يضعون الحجارة فوق بعضها البعض.. شعرت وكأنما يبنون قبرا لذكريات الطفولة.. حاولت أن أتركهم وحدهم.. لكنني لم أستطع فصوت عتابها المخنوق واستغاثتها جعلني أتسمر في مكاني ولا أقوى على النظر إليهم.. واصطفت الأخشاب لتتآلف وتصنع سقفا لغرفة كانت ملعبا واسعا يحتضننا ويبعد عبثنا عن أم متعبة، لكن ملعبنا لم يبعد عبثنا عن الجيران ونحن نتسلق جدرانه ونمطر أولاده بمياه غزيرة.. الفرح بالسرير الدافئ.. الذي يريح ضلوعي من أرض قاسية ويشفي جسدي من

صفعات إخوتى.. الفرح بجدران ناعمة لامعة ملونة.. كل هذا لا يمحو حزنى وأنا أرى عريشة طفولتى تقطع وترمى بين الأحجار المتكسرة ليرتفع مكانها سقف من الأسمنت القاتم يخنق حكايات جدى عن العفاريت والجان فى الأمسيات الصيفية تحت شجرة الزيتون الهرمة العتيقة.. وشجرة النخيل الباسقة.. ويصد ضحكاتنا ونحن ننطلق بحجارة صغيرة على بيت الجيران.. ثم نحتمى بجدرانها القصيرة لنختبئ من فعلتنا تلك.. بدأت أتأمل يد العامل القوية تغلق الحفر الصغيرة بدوائر الأسمنت التى ملأت الجدران.. تلك الحفر التى تعبت أيدينا النحيلة فى دفنها.. ليتنا كنا نملك يدا مثل يده، إذن لحفرنا حفرا اكبر من تلك التى أغلقها ومحا الكلمات المكتوبة على الجدار بمياه كثيرة.. بدأ أزيز يخترق سمعى كأنما تلك الكلمات تستغيث كانت مكتوبة بالفحم الأسود لتغيظ الجيران.. كلمات قاسية.. لكن كتابتها مريحة وممتعة.. لقد ارتفعت الجدران وانتهى الأمر.. ولم يعد هناك مكان لجلوس تلك القطة وقد أغمضت عينيها والهواء يتغلغل فى فرائها الأبيض الطويل.. اقتلعت تلك المسامير التى دققناها لنعلق عليها لعبنا وأشياءنا.. كل هذا أصبح ذكرى عابرة.. قد

نتذكرها غدا.. وقد ننساها حينما تختفى صديقة الطفولة عن أعيننا.. كل هذا حدث من أجل رفع سقف من الأسمنت لا حياة فيه ولا ذكريات، بل مزيدا من خنق الخيال وقتل الطفولة لنكون كما يقول الناس: كبارا متنين بعيدا عن الولدنة كما يقول جدى.

نشرت بجريدة القاهرة، أغسطس ٢٠٠٠، العدد السابع عشر.

امرأة تعزف على الأسلاك الشائكة !!

مرت بيدها على مسامات وجهها، الزمان الهارب ترك آثاره، ألقت بجسدها الواهن على طرف أريكة، الساعة تزحف نحو الثانية عشر ليلاً، فجر يتسربل أغصان الوقت الوساوس تعبث بهذا الرأس المتخم. كثيراً ما حاول إقناعها بأن المسألة (قسمة ونصيب) حسمها سلباً أو إيجاباً، هى بيد الله وحده، بعد أن عجز الطب، وأنه راضٍ بقسمته.. ثمة كآبة تدخل صدرها، ضجيج البحث يسرى بنبض متسارع.. متاهات لا حصر لها.. تضع تفكيرها أمام خيارات مجنونة: «إن لم أنجب سيتزوج علىّ، سيكون لى ضُرة، سأحرم من كلمة «ماما» ربما يطلقنى.. شىء من مخزون الذاكرة داعب ابتسامتها الشاحبة.. صوت أم عادل يخترق الصمت: «جارتنا أم حسين عجّزت الأطباء من غير فائدة، والآن تقوم وتقعد وتدعى «لأبو سالم».. علامات الدهشة

تعلو وجه المرأة.. لا تخافى يا سميرة.. الراجل مجرب وبيخاف ربنا «كل نسوان الحتة بيروحوا عنده، بيفك العقدة، بيجلب الغيب، وبيزيد المحبة وبيكشف المستخبى.. شغلانة مش حاتكلفك أكتر من ألف جنيه.

– بس جوزى مش راضى بيقول عنهم مشعوذين.

– وهو منين حيعرف.. روحى روحى، قال مشعوذين قال!

فى مكان آخر.. دوركيا أم عادل.. أدخلى برجلك اليمين يا شاطرة سيدنا أبو سالم بيزعل.. بركاتك ياسيدنا: جارتى وصحبتى قاصدين عطفك وكرمك.

– حى حى دستور يا أسياد دستور.. خادمكم الفقير أبو سالم بيناديكم حى.. الإجابة.. الإجابة.. الإجابة.. السرعة.. السرعة بيتك فى حى الصفا.. حزينة ومهمومة وعايزة أولاد حى.. حى.. دستور.. دستور همهمت المرأة لجارتها بصوت خافت «ده عارف كل حاجة عنى !!».

– طبعاً.. طبعا مش قولتلك، ده أبو سالم حلال العقد والمشاكل حى.. دستور.. دستور.

– تروحى يابنتى بالليل حاتحفرى تحت الحيط الغربى من

دار أبو جمعة الوافى.. حتلاقى (صرة حمرا) تجيبيها وتيجى على طول.

المساء يقتحم جدران النهار، حركات صاخبة تعبث فى أحشاء الأرض، جنون الرحبة يمتطى المكان.. الصرة تقتحم المدى الذى تتنفس منه الغيوم.. الفراش يتثاءب.. النوم يمعن فى شراء العصيان.. دوامة المتاهات تطلق من جديد.. صوت الزوج سكب حاراً فى أذنيها «قسمة الله يا امرأة، المشعوذون مشعوذون».

قالت الزوجة فى سرها ثم أردفت : ولكن الصرة واسمى واسم زوجى وعنوانى و.. و..

فى هذه الأثناء كان رجال الشرطة يقتادون أحدهم يقال أنه من صبيان أبو سالم، كان يحفر تحت الجدار الغربى لبيت أبو جمعة لأمر ما.. فيما بعد تناثرت الأقاويل عن نبأ القبض على امرأة تدعى أم عادل بتهمة إغواء النسوة واقتيادهن إلى وكر أحد الدجالين مقابل نسبة مئوية.

نشرت بجريدة «الجمهورية» ١٠ نوفمبر ١٩٩٨.

الكابوس !!

أوقفت سيارتها قبالة المنزل الفخم الذى تسكنه.. ضربت على أحد الأبواق فأطل عليها من داخل الحديقة حارس البوابة.. سار بخطى سريعة نحوها.. طأطأ رأسه من النافذة.. مهلاً، قاطعته بصوت مختنق وبعصبية حادة.. طالبة منه الكف عن الثرثرة.. وإحضار الأكياس والحوائج - التى ابتاعتها - من الصندوق الخلفى، وأمرته بإدخال السيارة إلى الجراج بعد أن أعطته سلسلة المفاتيح.. دخلت البيت بينما انهمك البواب فى حمل وإحضار تلك الأكياس الكثيرة.. حتى هيئ إليه أنها جلبت معها السوق كله.. صعدت السلم إلى الطابق العلوى.. دخلت حجرة النوم.. ألقت بنفسها على السرير بعد أن نزعت حذاءها.. قذفته بإهمال واستهتار على أرضية الحجرة المكسوة بالسجاد العجمى الثمين.. شعرت بحاجتها إلى غفوة تريحها وتهدئ من

حدة أعصابها المتوترة.. أغمضت عينيها واسترخت.. لكنها لم تستطع النوم.. نهضت.. توجهت إلى المرآة بخطى بطيئة.. حدقت فى صورتها المعكوسة فى المرآة.. أحست بشىء من الحزن والأسى يخيم على وجهها، ويغطى ملامحها تعبير يدل على عدم الرضا والانكسار... نظرت إلى عينيها فوجدتهما حائرتين غارقتين فى حزن عميق بدت وكأنها تحدث نفسها أين تلك الابتسامة الصادقة.. والعيون الصافية؟! أين غاب وجهى المشرق المنير؟! أرتدى أجمل الثياب وعلى أحدث صيحات الموضة.. أبدع وأرقى أنواع الزينة والعطور.. أركب سيارة فخمة.. أعيش فى بيت شبيه بالقصر.. اخترت أثاثه بعناية فائقة وبذوق رفيع.. لكنى أقر الآن وبعد السنوات الخمس التى انقضت من زواجى بالفارس الذى حقق أحلامى بأننى الآن كنت مخطئة، فما شعرت به.. وجدته نقيضا للواقع والحقيقة المريرة.. ولدت فى بيت فقير تخلى عنها الصديق والقريب.. صممت على الانتقام لكنى أخطأت السبيل وكنت أنا الضحية.. فى لحظة وهن وضعف رضيت به.. أقنعونى بأنه الفارس المقدام المنقذ.. وهبنى الكثير لكنه سرق منى الأكثر.. اليوم وبينما كنت مع صديقاتى...

سمعت طرقاً بالباب فاستدارت نحوه تهز رأسها وكفها يعلو جبينها تريد إبعاد وتشريد تلك الأفكار المتضاربة المشوشة عن رأسها.. طلبت من الطارق الدخول.. (أحضرت الأكياس يا سيدتى).. أجابته بصوت منكسر حزين : «ضعها هنا.. وأطلب من عديلة أن تعد لى فنجاناً كبيراً من القهوة» حاضر يا سيدتى.. فى يدى سلسلة المفاتيح.. خرج البواب، مغلقا الباب.. بينما انحنت أمام أشيائها وملابسها التى ابتاعتها تتفقدها وتعبث بها بعيون ذات نظرات متصدعة تحاول مصطنعة أن تبرق فيها شيئا من نور الأمل، وتضع ابتسامة لتوهم نفسها بالسعادة كأنها طفلة صغيرة يقدمون لها دمية إذا صرخت أو بكت، تعبث بها لتنسى ما بها من حزن وألم .. ربما لأنها كانت تشعر بجوع أو أنها افترقت عن أمها أو لأى شىء مؤلم أصابها فى المساء.. عاد زوجها من جولة أعماله اليومية.. بينما كانت جالسة على الأريكة أمام التلفاز فى الطابق السفلى ترتدى ملابس المساء استعدادا للنوم وبيدها كوب من الشاى.. بدا وجهها وديعاً كقطعة مدللة جميلة مستسلمة ومغلوبة على أمرها.. أحست بقدومه لا لسماعها صوت محرك السيارة وإنما لعلامات مميزة

فيـه.. له صوت خشن مشوش كان يصدره على شكل تنهدات وتنمنمات كلما دخل البيت.. كانت كلما سمعته انقلب حالها وتغير لونها وكأنها لا تريد رؤيته أو عودته إليها.. فتح الباب الداخلى بالمفتاح الذى بحوزته لأن من عادته العودة فى ساعات متأخرة من الليل.. ظهر أمامها بقامته الطويلة.. وجسمه المائل إلى السمنة وبقايا شعره الأشيب.. أطل أمامها بوجه ضخم.. تغزوه التجاعيد وتعترى تقاطيعه الضخمة الكدر والعبوس.. ألقى عليها تحية المساء أثناء جلوسه على الأريكة لكنها ظلت واجمة محدقة فيه.. ومصوبة إليه نظرات معبرة عن السخط وعدم الرضا.. طار صوابه وبدا شديد الامتعاض لتصرفها.. أخذ يصرخ فيها موبخاً.. «أنا أعمل طيلة النهار وأجهد نفسى لأجلك وحين عودتى إلى بيتى وزوجتى لأستريح.. أجد زوجتى التى أهبها كل ما أملك وأجهد نفسى لأجلها تتجاهلنى ولا تلقى بالاً لى».. استمر الزوج فى تعنيفها وتأنيبها بينما ظلت محدقة فيه تتنهد من أعماقها ترتجف شفتاها وترقص رموشها تكاد تهم بالبكاء.. ما كان منها إلا أن تركته وأخذت تصعد السلم بخطوات سريعة متلاحقة.. إلى الطابق العلوى .. لتصل إلى

حجرة نومها.. بينما ظل هو فى الأسفل ليتناول طعامه الذى أعدته له الشغالة عديلة.. كان يبدو عليه الغضب والحيرة فى أمر زوجته التى تتصرف بغرابة تامة غير راضية عن أى شيء.. بعد صعودها إلى حجرتها أطفأت النور وألقت بجسدها على سريرها تفر الدموع من عينيها ترفض التفكير فى أى شيء أغمضت عينيها وغطت فى النوم بعد أن ثقل جفنها.. وبعد أن أنهى الزوج تناول الطعام الذى التهمه بشراهة لأن من طبعه تناوله بشراهة عند شعوره بالغضب.. صعد إلى حجرته.. غيّر ملابسه وارتدى ملابس النوم بعد أن أسدل الستائر.. جلس على سريره بالقرب من زوجته النائمة.. كان مستاءً لما حدث.. أخذ يحدث نفسه: إنى ألبى لها كل ما تطلبه.. جعلتها تحيا حياة لا تقل رغداً وهناء عن حياة الأمراء لكنها مع كل ذلك تتجاهلنى مراراً ولا تأبه بى.. لا تحاورنى أو تجاورنى أو تحادثنى كما تجالس النساء أزواجهن.. لا أدرى ماذا أفعل معها؟ ربما كنت مخطئاً بزواجى من فتاة تصغرنى بأكثر من عشرين عاماً.. لكنى أحبها ولا أطيق العيش بدونها.. تنهد وهز رأسه باستياء، ثم لف ذراعه حول جبينه وحاول الاستسلام للنوم. دخلت إلى مكتبه..

ظهرت أمامه بعيون ذئاب وحشية تحول وجهها البشرى الجميل إلى وجه ذئب شرس.. أخذت تصرخ : «أنا أكرهك أكرهك أكرهك» وكلما نطقت مرة بهذه الكلمة ارتفع صوتها أكثر فى المرة الثانية وفى المرة الثالثة.. ثم انفجرت فى البكاء وتابعت صراخها.. لقد اشتريتنى بأموالك القذرة.. اشتريت أجمل سنوات عمرى.. حولتنى من شابة يافعة إلى عجوز مثلك.. كل ما فعلته من أجلى وأنفقته علىّ من مال لا يكفى ثمناً لما أوصلتنى إليه من يأس وكبت وحرمان من السعادة والبهجة.. أنت سرقت ابتسامتى وبهجتى.. طمعت فى جمالى وشبابى لتعوض به شبابك الهرم.. بالأمس كنت أتسوق مع صديقاتى لكننى لم أشعر بأننى فى مثل أعمارهن أبداً.. كلهن بهجة وحيوية وإقبال على الحياة رغم مشاكلهن الكثيرة، بعكسى أنا التى حرمت نفسى من البسمة الصادقة.. أردت أن أبدو أكثر نصراً وسعادة منهن.. اشتريت الكثير.. كل ما وقع عليه ناظرى.. وبالرغم من أن كل واحدة منهن اكتفت بأشياء ضرورية ومحددة لكنهن انتصرن علىّ بالسعادة التى تغمرهن.. وروح الشباب فيهن.. فى داخلى نيران تحرقنى وعذاب يشوهنى.. حررنى من سجنك..

أبعد نيرانك عنى.. ماذا تنتظر؟ لماذا لا تنبس؟ صارت تبعثر الأوراق المرتبة على المكتب، ثم أخذت تضربه بالأقلام والأشياء الموجودة على سطح المكتب.. إلا أنه ظل جالساً على كرسيه أمامها.. محملقاً فيها منذ دخولها المكتب وحتى انتهائها من الصراخ والزعيق.. اشتد غيظها واشتد بكاؤها وكثرت تنهداتها.. اقتربت منه وأخذت تضربه بشدة على صدره ورؤوس أكتافه لكنها فوجئت بسقوطه جانباً على الكرسى متجمداً بلا حراك.. توقفت عن البكاء.. فتحت عينيها.. حدقت فيه بعد أن انحنت عليه.. لطمته بكفها على وجهه محاولة إيقاظه لكنه لم يستيقظ .. بدا وكأنه ميت.. أخذت تهمس.. وجهها يلامس وجهه: لا.. لقد قتلتك.. نعم لابد أنك مت عندما اصطدمت بك الأشياء التى قذفتها عليك.. أو أنك أصبت بصدمة جراء الكلمات القاسية التى وجهتها إليك.. خمس سنوات قضيتها معك وكأنها خمسون.. لكنك الآن ستسرق منى سنوات عمرى الباقية بذنبك الذى يلاحقنى.. ألا يكفيك ما سرقته منى؟ ألا يكفيك؟ حتى موتك يعذبنى.. لا.. لا تمت يا (سعيد) استيقظ.. استيقظ يا سعيد. استيقظت من نومها مذعورة بعد أن وجدت زوجها بجانبها

يحاول تهدئتها ماسحاً لها دموعها المنهمرة على خديها متسائلاً عن سبب صراخها وفزعها أثناء نومها.. ارتمت فى أحضانه باكية.. بينما أخذ هو يخفف من حزنها وخوفها بعد أن أخبرته أنها رأت كابوساً مزعجاً فى منامها.

نشرت بجريدة الاهرام المسائى، ١٣ يونيه ١٩٩٧

معاناة بعد مكالمة تليفونية !!

تحركت الحافلة من بلدتي إلى مدينة الألف مئذنة.. تقطع الطريق بسرعة فائقة؛ كي تصل في أقرب وقت ممكن تسرق الزمن في يوم واحد، فحسب وقتها سنرى الأماكن السياحية والأثرية في قاهرة المعز.. بعد مضي خمس ساعات ممزوجة بالمعاناة والإرهاق الجسدي والنفسي.. وصلنا - قرر المشرف على الرحلة أن نبدأ بزيارة سيدنا الحسين - تبركاً بقضاء وقت إيماني ممتع .. البعض انصرف إلى التنزه في الشوارع العتيقة بحي الحسين والبعض الآخر قبع على مقهى الفيشاوي والآخر دلف إلى المسجد ليصلي ركعتين لله.. كنت واحداً مما سجد لله.. كان عقلي وذهني شارداً «بتلفنة» صديقتي العزيزة وقضاء وقت ممتع معها.. كل جزء من جسدي يمني حاله وينادي لرؤيتها وجهاً لوجه.. حتى وإن تحرك وتطاير من مكانه ولتكن العواقب

ما تكن.. أسمع صوتها العذب الرقراق فأتنعم به دون أن أراها بيد أني أؤمن بالحكمة القائلة «الأذن تعشق قبل العين أحيانا».. شيء ما خفي يسحرني ويجذبني إليها بشكل كدت لا أقدر على كتمانه ولا إخفائه أكثر من ذلك. آثرت السير وحدي في حي الحسين العبق بتالد التاريخ العظيم والجمال الرائع العتيق الخلاب.. أحد أصدقائي أراد السير معي فترددت في الرد عليه لعله ينصرف عني. ولكنه سار معي مصراً ضارباً تجاهلي عرض الحائط.. أول شيء أردت أن أقوم به اتصالي بها، كلما توجهنا لحانوت وجدنا العديد ممن يرغبون المهاتفة بشكل لافت للنظر.. وجدنا حانوتا لا يوجد به إلا فتاة «تتلفن» انتظرنا قليلاً.. حتى فرغت من مكالمتها التي كان يبدو عليها القلق والاضطراب.. أدرتُ قرص الهاتف.. بعد الرنين ورداءة الخط التليفوني وتداخل الأصوات.. جاءني صوت، فيه الوقار.. كانت أم صديقتي، ثم حولتني إلى ابنتها الوحيدة.. من العجيب حقاً وغرابة الموقف أنها تقول: بأن صوتي غير واضح وبعيد عنها جداً، بينما أتلفنها من مكان لا يبعد عنها بضعة كيلو مترات.. عندما أتحدث معها من منطقتي النائية يأتي صوتها وكأنني

معها.. طلبت منها الحضور إلى المدينة الترفيهية لقضاء وقت ممتع سويا.. لا سيما أننا لم نر بعضنا من قبل.. طلبت منى حضورى شخصياً لمصاحبتها.. وتحت الإلحاح والإصرار وجدت صاحبى متعاطفاً ومشفقاً على حالى أخذ منى سماعة الهاتف ورد عليها.. مؤكداً عليها عدم الحضور بحجة الوقت المحدد لنا فى التحرك.. فى هذه الفينة الغارق فيها صاحبى بالكلام مع صديقتى.. إذا بيد خفية تسحب محفظتى الكامنة فى جيبى الخلفى.. ففزعت تاركاً صاحبى وانطلقت مهرولاً تنقلنى أقدامى من شارع إلى شارع خلف اللص وبصوت مدوى أردد : (حرامى.. حرامى.. إمسكوه حرامى.. كنت أتصبب عرقاً فى يوم كان بارداً ومختلطاً بالرياح المتربة المتقلبة.. اعترضه بعض المارة وأصحاب المحلات التجارية وأدركه الناس.. فأخذوا منه المحفظة وطلبوا منى فحصها لربما يكون قد عبث بأنامله وهو يعدو آخذا ما بها.. بيدين مرتعشتين وأنفاس متقطعة متلاحقة عبثت بها فوجدتها لم تنقص شيئا فحمدت ربى.. البعض أصر وصمم على اصطحابه إلى مخفر الشرطة لكى يكون عبرة وعظة وينال عقابه.. البعض الآخر طلب السماح والمغفرة طالما لم

يحـدث لى أذى أو مكروه.. لكن اللص تملص بطريقـة الأفـلام الأمريكية المفبركة من بين يدى الناس وفر هاربا تاركا ساقيه للرياح.. كنت فى لحظة ذهول.. ألجمتنى المفاجأة دارت بداخلى هواجس غريبة.. هزت كيانى من الأعماق وأفسدت أحلامى التى كنت قـد خططت لهـا.، إذ لا يمكن رؤية صـديقتى بهـذه الحالة وسط عواصف الطبيعة والبشر.

المناقصة

لم يكن لهـا أى ذنب فى التـعـرف إليـه، لم تبـحث عنه فى الشـوارع، لم تلتق به فى حفلة أو ناد .. لقد كان صديقا للعائلة يتردد عليها باستمرار، ومع كل يوم كان ينمو فى قلب الحبيبين شـعـور من الود المتبـادل، تعـمق أكـثـر وأكـثـر مع تكرار زيارته لعائلتها، ملك كل حواسـهما.. أشعل فى فؤاديهما نارا لا تخمد، ناراً من الحب الصـادق الهادف إلى بناء أسـرة تجمـعـهمـا.. جاء يوم فتح كل منهما قلبه للآخر.. عاشا ساعات لا تنسى من الحب الجارف، وكان طبيـعياً وهو صديق للعائلة أن يتقدم بطلب يدها فـهو مـوظف براتب يمكّنه من تأسـيس بيت جـديد يجـمـعه بفتـاة أحلامه، وهى أيضا واعية وموظفة، لكن والدتها رفضته.. رفضته بإصرار. لقد كانت ترحب به صديقاً للعائلة ولكنها لا تقبل به نسـيـباً؛ فـهـو ليس غنياً وهى تحلم بأن تزوج ابنتـهـا من ثرى..

ناضلت سوسن بكل قواها تحاول أن تقنع والدتها ألا تسلمها لمن يدفع أكثر.. خفقت كل جهودها، وأصرت الولدة على الرفض.. مضت سنة. سنتان. ثلاثة.. والوضع على حاله.. سوسن تعيش في أعماق فتاها، وفتاها يعيش في أعماقها يختلسان بضع دقائق كل يوم للقاء خاطف بعيد عن الأنظار، لم يستطع الزمن أن يقضى على ما فى فؤاديهما وأن يطفئ من شعلته الملتهبة، بل زاد الشوق حبهما وقودا وتعهدا أن لا فراق إلا فراق الموت، لكن النتيجة هل يظلان هكذا؟ يعيشان على الأوهام.. يحترقان شوقاً، فكرا فى خطوة جريئة لتحدى رأى الوالدة ولكن عقبة كبرى صدمتهما إن الوالدة مريضة فى قلبها* وإن أى صدمة ستودى بحياتها.. فهل تضحى سوسن بوالدتها من أجل حبها أم تضحى بحبها من أجل والدتها؟. وبين النارين تعيش سوسن وكل جارحة فيها تقول إنها لفتاها ولو اضطرت أن تنتظر عشرات السنين.

نشرت بجريدة العمال ٦ سبتمبر ١٩٩٩.

شظايا الحروف !!

كانت صرخة رأيت فيها روحها تقطر من أصداء صراخها اليائس.. اندفعت بذهول أسألها ما الأمر يا صدفة.. لكنها كانت قد تحولت إلى حطام.. إلى كومة من الأنين والدموع وشظايا حروف تناثرت بين الهشيم الذى كان منذ لحظات يخفق بحيوية.. سألتها بإشفاق: أرجوك أجيبينى.. عبثا حاولت أن أسمع إجابة غير الزفرات المبتورة.. طفرت الدموع من عينى رغما عنى لكنها أيضا عجزت عن رد بعض الحياة إلى الزهرة التى اجتاحها الذبول حتى أتلفت شرايينها.. صدفة يا عزيزتى يا فراشة رفْرفَتُها شقية رائعة.. يانسمة شذية عبق بها المعهد دائماً.. ما الخطب؟ إن أجهزة الكمبيوتر تفتقد الآن لمسات أناملك الماهرة.. تفتقد كافتريا المعهد أجواءها إذا ما اختفت ضحكاتك.. هيا معى الآن.. ستعودين إلى عهدك.. ستدوسين

على حزنك مهما يكن.. فهو لم يجرؤ يوما أن يرفع رأسه أمام فرحنا.. هيا لنذهب إلى غرفة الكمبيوتر ولنفتح برامجنا برسومنا العابثة كما اعتدنا.. أعلم ما سترسمين.. حروفك المنقوشة بفن «يا سلام» (غ - ر - ى - ب) تجعلينها كل مرة فى تشكيل مميز رائع مع حروف اسمك وكالعادة سألح بشقاوة «أيوه يا عم» وبطريقتك المسرحية ستقولين جملتك المشهورة «تعددت الرسوم والاسم واحد» أردفت ضاحكة: والرموز واحد.. تضحكين فى خجل وتتخيلين صورته وهو يسابق الريح بدراجته النارية حتى يحازى سيارة المعهد فيطلق بوق دراجته عالياً.. مختلساً نظرة شوق إلى عينى التى اسمها صدفة، والتى تتصنع اللامبالاة كما يتصنعها تماما قبل أن يمضى كالبرق وكأن صرير احتكاك العجلات بالشارع الذى يتعمد إصداره مع صوت البوق العالى درب من الصدف.. يا لها من صدفة.. تتكرر كل يوم.. بات كل من فى المعهد على علم بالرواية التى يخط سطورها ويحكيها بتنا جميعا نتلهف مثلك.. المفاجأة اليومية المعتادة للرسالة الشفوية.. التى قد تأتى فى أية لحظة دون تحديد مسبق.. تأتى فتسرين لى بالعديد من فصولها ولا بد أن

الكثير لا يزال طي صفحات الفؤاد.. تضنين بها على الجميع سوى الحبيب.. يحق لكِ ويحق له.. أن يملأ جدران حجرته بحروف اسمك واسمه.. وتضحك أخته معلقة بمحبة: لن تحتاج الطلاء بعد اليوم؛ فجميل ورق الجدران الصدفى هذا، ولا يلام فقد أحببناك جدا فنحن صديقاتك فكيف به هو؟ أتذكرين كيف كنت تغتاظين كلما سألتك متى تتزوجان يا صدفة؟ نتلهف لرؤيتك خلفه على الدراجة النارية، سأضحك على منظرك حتى الموت.. أتذكرين كنت تهاجمينني ضاحكة؟ ويأتى المدير مستفسراً عن سبب الضجيج فإذا كل شىء هادئ وطبيعى.. عدا ثلة من الكتب تقبع فوق رأسى وأنت تجلسين متظاهرة بالبراءة، وشقاوة نظراتك تفضح ضحكتك المكتوفة.. وكأن كل الكتب تلك.. قد هبطت فجأة من السماء.. أتذكرين كل ذلك يا صدفة؟ بالطبع لن تنسى كل الأيام السعيدة التى نقضيها معاً.. هيا اغسلى وجهك واضحكى لا شىء يستحق كل هذا البكاء.. أنت بالذات يُمنع بكائك منعاً باتا كيف تبكى من تنتظر حياة رائعة مع الحبيب على ظهر دراجة نارية؟.. أراك حتى لا تبتسمين لدعابتى.. صدفة ما الذى أصابك؟.. هيا ألا تلاحظين

أن غريب قد تأخر اليوم؟ لا بد أنه سيمر خلال الدقائق القادمة ليرسل رسالته الشفوية المعهودة... فلنسرع إلى الكافتريا، لأن الصوت من هناك أوضح هيا يا صد..

«يكفى».. ماذا تقولين.. يكفى؟ صرخت بهستيريا وقذفت الكثير من الكلمات بطريقة مجنونة.. ثم خفت الصراخ فجأة ليصبح حشرجة أليمة وبصوت مجروح مخنوق همست: الحبيب والدراجة حملهما الموت على ظهره.. حياة رائعة على ظهر الموت أليس كذلك؟ ضحكت بمرارة قاتلة مغموسة بالدم، ثم انفجرت كل ذرة فيها ببكاء لم يكن قد انقطع.. وصعقتنى الفاجعة.. بصعوبة كبيرة استطعت التماسك.. وانحنيت عليها أريد التخفيف عنها بأية وسيلة.. رأسها بين يدى كانت كتلة من الجمر.. صرخت برعب استدعوا الإسعاف.. صدفة اصمدى أرجوك.. اهدئى يا صديقتى أنينك المتواصل يمزق قلبى.. ارحمى نفسك يا عزيزتى أرجوكى.. زفرات يطعنها الأسى.. آه يا غريب.. ثم لم يعد هناك أنين على الإطلاق.. لم يعد هناك سوى كومة من الحطام والدموع وشظايا حروف الرواية تناثرت بين الهشيم الذى كان منذ لحظات بحيوية بين ضلوع فتاة كانت تدعى صدفة.

نشرت بجريدة أرض السلام، مارس ١٩٩٨.

المطر الأسود !!

فى صباح يوم ماطر، برودته تلسع أطراف الجسد، حام الموت حول المستشفى التى ترقد فيها أم سليمان.. اشتدت زخات المطر.. قاربت الساعة الثامنة والنصف، سار الموت بقدم هادئة إلى حجرات المستشفى حتى بلغ حجرتها، وقف بجانب سرير المرأة التى أنهكها السقم وأضعفت قواها مشاق الحياة، وتأمل ذلك الجسد الهزيل الذى يتصبب منه العرق.. أطراف جسدها باردة.. أنفاسها لاهثة متسارعة.. متمسكة بآخر لحظات العمر.. خشخشة فى صدرها.. يعلو صوتها لينقطع مرة أخرى... تناجى الحياة مناجاة المفارق لها، بعد أن تأمل الموت ذلك الوجه الهادئ رغم المرض والعياء، وضع أنامله اللطيفة على شفتى تلك المرأة وأخذ حقيقتها ووضعها تحت جناحيه وحلق فى الجو باحث عن حقيقة أخرى.

وصل حسين إلى المستشفى فى التاسعة صباحا، قلبه متوجس يخشى أن يجد والدته فى حالة سيئة... لا يدرك قلبه المسكين أن الموت سبقه إلى زيارة أمه فى ذلك الصباح الماطر.

أسرع فى خطاه وعيناه مغرورقتان بالدموع... بلغ المستشفى... أسرع إلى الغرفة التى ترقد فيها أمه، لم يجد إلا سريراً خاليا عليه غطاء أمهق البياض... زادت خفقات قلبه... أسرع الخطا إلى غرفة الأطباء يسألهم.. لم يجد إلا عيوناً حائرة تنظر إليه نظرات حزينة عطوفة، جاءت الإجابة من أعماق ذاته، فجثا وتجشمت أنفاسه الحارة بهذه الكلمات: ردها إلىّ يارب فقد أذابت حشاشتى. تمزق قلبه من حرارة زفراته وذابت عيناه بين الدموع الحارة، شعر أن الدنيا أصغر من عقلة الأصبع، أخذ يضرب رأسه بالحائط عله يستيقظ من حلم مظلم، لكن الحقيقة ظلت باقية.

تحامل على قدميه.. ربط لسانه، غادر الغرفة السوداء وهو يرتجف مثل قصبة أمام الرياح، وقف يبكى أمام باب المستشفى.. الأمطار السوداء ما زالت تهطل، أصبحت حياته بكاء حاراً، تصعد أنفاسه فى الجو حاملة كل آهات الحزن

والتعاسة، لا يحس ببرودة الجو، أصبحت ملامح الآمال والأمانى والأحلام ضئيلة فى عينيه، الموت والحياة تساويا عنده بالجمال وتشابها مع اللذة.. تركته السعادة، سار إلى ما لا نهاية.. دون هدف ، يفكر فى موت أمه والتفكك اللانهائى بين أشقائه المتشتتين فى مكان واحد.

دموعه تنهمر منسكبة فى قلب الحياة، بات ابنا للدموع، تلقته شقيقته الكبرى الوحيدة.. بحضنها الدافئ، وأسبغت عليه من عطفها وحنانها وبيديها الناعمتين جففت دموعه، تلمست خصلات شعره السوداء الجافة لكن لم تستطع أن تجفف جرح قلبه. ظل قابعاً فى أركان غرفته المغطاة بالقرميد، يتنفس كالبركان.. تتوالى أمام عينيه صورة أمه.. يتذكر وقفتها.. ضحكتها العميقة.. عينيها العسليتين النجلاويتين اللامعتين.. ارتعاش يديها.. صورها التى جمعتهما معاً فى البيت العتيق بأجمل الذكريات.. دفاعها الدءوب عنه أمام أشقائه الحاقدين عليه.. ووصوله لأعلى درجات العلم.. عطفها وحنانها دونا عن الباقى.. أحاديثها الجذابة.. تُحدّث ابنها عن أيام شبابها.. أفكارها ومثلها التى ترقى إلى الكمال. ظل يحمل صورتها،

ويضمها إلى صدره ويبكى حتى كاد أن يدخلها إلى أعماقه أو يدخل هو فيها أينما حل وارتحل.. بعد أيام من التعاسة والفرح، غمرت الدموع كل مكان قبع فيه حسين، المأساة الموجعة التى عقدت لسانه، وكبلت يديه وسرقت البسمة من شفتيه.. أيقن أن دموعه لن تعيد من فارقها، أن الموت سيعود ليأخذ حقيقة كل من فى البيت، فما عليه إلا أن يكون شامخا كالجبال قويا كالجبابرة، صامداً كالسرو فى الغاب.. يحمل أحلام وآمال أمه البسيطة ويرنو بها إلى قمم الجبال ليحققها، ويسير على الدرب المزهر الذى خطت أمه عليه أولى الخطوات.

نشرت بجريدة العمال، ٢٣ فبراير ١٩٩٨.

الشقاء فوق العادى!!

جاءتنى متسللة عبر زجاج النافذة المكسورة.. باردة جداً ومنتفضة، ترسل إلىّ بأطرافها فأشيح بوجههى عنها.. تتدلل تحيد بى، صفعنى صوتها.. - ممن تهرب؟

ولا أستطيع.. - لن تفر.. لن تفر.. تردد الصوت فى جنبات المكان بينما جذبت جسدى إلى زاوية من الحجرة.. أقبلها وهى تزهو بملامحها البشعة، واحتلالها لكل مساحة من الفراغ، أغرقت الرأس فى هوة مظلمة بين ذراعى.. أطل منها الحلم شاحباً: - تحبنى؟... - هل ستبقى كثيرا هكذا؟.. قلها (تضاحكنا.. وساد صمت للفترة).

محوطا بالجدران المرهقة.. كادت تهزمنى.. قاومتها.. أفلتت، نهضت محاولاً الخروج.. منعتنى.. تجمعت من النافذة، والشقوق.. مما بين الحائط والباب.. عظامى نفذت إلى أعماقى..

سرت فى شريان الدم.. اندفعت معه، إلى حيث الحلم ينسحب.. يجر خلفه مرارة الواقع.

– سنتقابل غداً.. أليس كذلك؟ قالتها فى قلق.. وبمثله نطقت:

– آه – مـــا بك؟ – لا شىء – تكذب – لا تشـــغلى بالك – صارحنى – فقط .... (سئمت).

ارتسمت على وجهها خطوط الدهشة اتسعت عيناها: منى؟ مضـغت ابتسـامة يأس.. هززت رأسى يميناً ويسـاراً. فى تودد رجتنى:

– ابق قليــلا. أردت أن أفـعل.. طاردنى شـبح الهـزيمـة.. انتـزعنى منهـا.. ابتـعدت، نادت: سـأنتظرك.. غـصت فى بحـر الرؤوس والأحجار، والحديد، انحدرت على ذات الطريق العفن.. هبط الدرج الهـارب من الضوء.. دفعت الباب.. داعبتنى أشعة خـافـتـة.. متكومـاً فى ركن الحـجـرة الرطب.. حـين توغل الليل هاجـمـتنى مـرة أخـرى.. باردة جـداً،. حـاولت تثـبـيت أوراق (الكارتون) التى سقطت.. فى فراغ الزجاج المهشم – لم يمنعها ذلك: (صـبـيـة الحى الملاعـين لا يتـركـون شـيـئـا فى مكانه).. (سـأريهم).. مرتجفا سحبت كل الأغطية.. سددت بها كل الثقوب

والفتحات: (لن أدعها تفعل ما تريد هذه المرة) بقى جزء من النافذة دون غطاء.. خلعت الجلباب.. قذفته به.. نامت.. ناوشتها.. نفثت زفيرا ساخنا فى قبضة يدى المضمومتين على فمى.. اغتاظت.. ضحكت.. احتدت ثورتها.. انفجرت ضاحكا، ومع الدفء الذى بدأ يملؤنى أحسستها ترحل.. من ثقب الباب. فوق السرير.. هادئاً قبلت الصورة التى تركتها حبيبتى حين تقابلنا منذ سنوات مضت.. ودعتها فى نشوة المنتصر.. أطحت بها بعيداً.. وكدت أن أبكى.

نشرت بجريدة اللواء العربى، ٢٢ مارس ١٩٩٨.

لئلا نحترف الأحزان؟!

أراد أن يحقق لذاته شخصية ذات وجهين كما العملة.. يتداولها البشر في كل مكان وبوجهين مختلفين.. أراد أن يعيد زمان «سي السيد».. يعيش بين كنف أولاده وكأنهم جوارٍ وعبيد بالنسبة له.. كلمته نافذة لا ترد.. يأمر فيطاع دون نقاش أو اعتراض.. تحت عباءته السوداء الكالحة، وفي ثنايا الأسرة المحكوم عليها بالفناء والانفجار في أي فينة، يتداول معها بلون قاتم العنفوانية.. بأشكال خارجة عن الطبيعة والنواميس التي ألفناها.. يتعامل مع الجيران والناس بكل سؤدد وود وكرم حاتمي.. وعلى النقيض مع المغضوب عليهم من أسرته كالوحش الكاسر والفك المفترس.؛ قهقهت في سريرتي وبكيت في أعماقي، وألمّ بي توجس مخيف عندما سمعت أنه أراد أن يعاقب أبناءه فأدخلهم المرحاض وأغلق عليهم ليلة بنهارها قاطعا عنهم المدد

والزاد.. شعرت بأن حكم فرعون قد أعاد كرته مرة أخرى..
أيضا من شواذ ذلك الرجل غريب الأطوار وشذر الأفكار أنه
كان نائما، فسمع أصوات الدجاج تقض مضجعه.. فقام وذبحها
جميعاً بلا استثناء.. تعجبت لوجود رجل يعيش فى هذا المكان
بهذه الطريقة السيادية والتلذذ بعذاب أولاده وزوجته التى لا حول
لها ولا قوة.. إذا نظرت إليها تقرأ كل الأحزان فى عينيها
الصاغرة التى انطفأ فيهما البريق.. حكمت عليها الأيام وكتب
فى لوح القدر أن تعيش تحت سقف واحد مع رجل لا يعرف
الرحمة ولا تدخل قلبه الشفقة. هكذا الأيام تأخذ كثيراً ولا تعطى
إلا قليلاً.. أما الأب فعندما تقدم لابنته سلوان «تلك الابنة التى
تمتاز بدماثة الأخلاق وحسن الأدب وجمال المنظر وحلاوة الطلعة
ورقة القد وغصن البان والتدين اللانهائى».. عندما تقدم إليها
شاب من عائلتها يقولون عنه: توفرت فيه كل الصفات والميزات
الحميدة والطيبة.. لم يكن ثريا حتى يروق لأبيها؛ فتلك المتطلبات
لا تعنى بالنسبة له أى شىء.. لا تغنى ولا تسمن من جوع.. وما
زاد الطين بلة أن ابنه كان يطيع أبيه طاعة عمياء فى كل صغيرة
وكبيرة.. ولم لا ؟ ومن شابه أباه فما ظلم ومن جاور الحداد لم

يسلم من ناره.. ذلك الابن الذى تعلم القسوة والبطش والألفاظ الجارحة.. لقد تجرع الغلظة من أبيه.. أصاب سلوان الألم والسقم.. ألم بها الحزن العميق ونما وترعرع داخلها كالجنين فى بطن أمه.. تحولت بقدرة قادر إلى هيكل شبه امرأة.. ألمّ بها مَسّ من الشيطان وركبها الجان.. (والعياذ بالله).. كانت تنام ووسادتها تشاركها الدموع.. لا تنقطع على أيامها المبهمة التى جاءت فى ليل رهيب أسود.. قد طالت الليالى بعواصفها ورمالها الصفراء الساخنة.. باتت سلوان لكل من يرنو لها تقشعر لها الأبدان وتجعل الولدان شيبا.. وعندما شعر شقيقها بوقوع الكارثة لأخته ظل جاهشا فى البكاء.. أحس بالندم على ما تقدم من ذنبه وتأييده لأبيه والظلم الشديد الذى وقع على أخته التى لا ناقة لها ولا جمل.. البريئة مما حدث لها كبراءة الذئب من دم ابن يعقوب.. أما أبوهم فبات متمسكا برأيه متعنتا بكلمته بأنه لا ذنب له فيما حدث لابنته.. ترك الابن خدمته بالجيش، حيث كان متطوعاً.. ولم لا ؟.. فهو يعيش فى جحيم الحياة.. فأراد أن ينتقل من دائرة سجن إلى زنزانة أوسع ربما تكون أرحم مما يراه.. مكث بجوار أسرته يرعاهم.. وكأنه يكفر عن ذنب اقترفه..

فـاضت روح أختـه إلى بارئهـا.. غـادر الأب إلى إحـدى البـلاد العربية تاركاً وراءه أسرة شقية تعيسة لأحكام القدر.. اصطحب معه ابنته الصغرى.. تزوج بامرأة أخرى.. أراد أن يعيش مأساة التلذذ والعذاب مع أسرته الجديدة.. وصورة سلوان ومأسـاتها عالقة فى ذهنى.. تكمن فى وجدانى.

نشرت بجريدة الأهرام المسائى، ٢٥ أبريل ١٩٩٧.

المبروك !!

سيرته الطيبة والحسنة تجدها فى كل مكان من أرجاء المدينة وضواحيها، يهرول يميناً ويساراً.. إقباله إقبال هناءة.. يتلاحقون ويتسارعون عليه لينال كل واحد منهم بركة استقباله.. اتخذ لذاته كوخاً من الخشب وفضلات الأشجار.. بجوار «ماكينة المياه» التى يعمل عليها حارساً.. أراد أن يعيش فى عزلة عن الناس ولهوهم ومشاغلهم الدنيوية.. يقيم فى الكوخ الصلاة ويتلو القرآن الكريم ولا يكف لسانه عن ذكر الله .. جميع الناس يحبونه حبا جما.. تكسو عيناه العسليتين الأرض المقفرة الخاوية بلونها الأخضر.. وجهه كما وجه القمر قمحى اللون يرتسم على لحيته البيضاء الوقار والهيبة.. شعره قصير يخفيه بشال أسود ممزوج بالأبيض.. متوسط القامة عريض المنكبين يبرز ويختفى فجأة من حين لآخر.. الناس أدركته بكراماته وبركاته المستمدة

من عند الله.. ويقـولون «إنه لحـمـة طاهرة ومن أوليـاء الله الصالحين، وفيه حاجة من الله» عندما يرتاده أحد المضرورين الفاقدى الأمل من العلاج بالأدوية والعقاقير الحديثة يحمل معه الهدايا والهبات فلا يقبل منها شيء، بل يطلب أن توزع على المحتاجين.. إذا تأمل فى وجهك يقرأ ما وراءه ويعلم «بإذن الله» ما فيه من الغيب والمجهول.. ذات يوم أراد بعض الصبية أن يمسوه بأذى وضرر.. فحملوا فى أيديهم زمرة من الحجارة ألقوها عليه.. ثم دلف إلى كوخه.. وما إن أقبل النهار.. إذا به يجد الصبية متسمرين فى أماكنهم كالتماثيل دون أن ينطقوا بكلمة واحدة.. وهم يجهشون فى البكاء المرير الغزير.. فدعا ربه أن يديهم.. وما إن أنزل يديه المرفوعتين إلى السماء حتى تحركوا من أماكنهم.. باتوا يقبلون يد شيخنا الكريم وهو يردد: يغفر لكم الله يا أبنائى ويبعد عنكم الشيطان.. وأكثر ما شدنى وجذبنى إلى ذلك الرجل هيبته ووقاره وتعلق الناس به أكثر مما فوق العادة.. صوته منخفض يتحدث وكأنه يشدو بأصوات متناغمة له نظرات تكشف ما وراء الحجب والغيوم.. ذلك الرجل المبروك الذى يطلق عليه أهل المدينة أنه من عشاق آل البيت ولم

لا ؟ هناك طائفة من الرجال يطوفون حوله ويتقربون إليه ابتغاء مرضاة الله والعفو عنهم لينالوا من كراماته التى حباه الله بها.. فله دعاء مقبول عند الله.. أول ما التقت عيناى به عندما توجهت إليه «بعدما أشار علينا بعض الناس أن نذهب بأمى المريضة طريحة الفراش» إلى ذلك الرجل الذى ينال منه الناس الرضا والدعاء الطيب المبروك.. ذلك الرجل رأيت فى وجهه نورانيات الهيبة نابعة من نور الله.. إنه نور ربانى حباه ومنحه إياه الله عز وجل بكل الرضا والتقرب إليه.. ذلك الرجل العجوز الذى يقارب عمره السبعين من السنين.. أبيض الشعر عتيق القسمات يرتدى جلباباً متهدلاً من التيل السنجانى وعلى وجهه صفحة من الأمارات التى تشدك إليه.. حل محلها الجفاف اليابس.. كنت فى قلق شديد قبل أن أراه، وعندما رأيته زال عنى الهم والضيق، عندما شاهد أمى قال: «أرجعوها إلى مكانها» وبعادات وطقوس غريبة الأطوار تفل (بصق) على وجهها، ثم تلا بعض الآيات والمعوذات من كتاب الله.. ومن ضمن بركاته - رضى الله عنه - أنهم استدعوه ذات يوم إلى مخفر الشرطة وعندما ركب السيارة أبت أن تتحرك وتشبثت فى مكانها بلا

حـراك إلا بعـدمـا أنزلوه منهـا فـأيقنوا أن هذا الرجل مـبـارك فتركوه منصرفين.

أجلسنا خـارج المكان الذى يقبع فـيـه وأشـار بأصـبـعـه لمن يعاونوه بأن يحضروا قهوة للضيوف فهو يعتبر كل من يزوره فى المحنة ضيف ولابد من إكرامـه فـهذا واجب أهل البدو ولا سـيـمـا ذو المناطق الصـحـراوية القـاحلة الذين ترعـرعـوا على العـادات الحـمـيدة والطيـبـة والمعـاملة الحسنة.. ذات يوم أرادت امرأة أن تلاطفه فقرأ فى عينيها دعوة الشيطان فقال لها : طريقك كله شوك. فقالت له : النار تحرقنى يا عم الشيخ أريدك أن تطفئها.. فقال: أسـتغفر الله العظيم وأخذ يردد: أسـتغفر الله العظيم.. أستغفر الله العظيم. وقال لها: استغفرى ربك وتوبى إلى الله لعله يتـقـبل التـوبة منك.. عـودى إلى صـوابك.. فـقـالت : إننى مـشدودة إليك أشد الحـاجـة فلتريحنى. فـقـال لهـا: ابعـدى وإلا مـسّك الله بالأذى.. فـأرادت أن تغريه فكشـفت له عن سـاقـيـهـا، فقال : يا ستار يا رب استر على عبادك، ثم همهم وتمتم ببضـع كلمات، فلم تشـعر بنفسـها إلا وهى خارج الكوخ.. فـأيقنت أنها تلعب بالنار مع رجل مـبـارك، وياله من رجل طيب مـبـارك رائع

الإحساس قريب الصلة من رب العالمين، رجل تقى مؤمن.. لا يلجأ إلا إلى الله.. ذلك الرجل حباه الله ببعض الكرامات والبركات ليس إلا .. لكنه لا يفعل إلا ما يرضى الله. وخرجت من عنده وأنا أردد قوله تعالى : «ألا إن أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون»، صدق الله العظيم.

نشرت بجريدة الأهرام، ١٣ ديسمبر ١٩٩٧.



الضحك فى يوم عصيب !!

كانت الشمس قد بدأت بنسج خيوط الضوء على رمال الشاطئ، وحيدا خارج المنزل واقفا لا يعرف ماذا يعرف أو ماذا يريد؟!! ثم بدأ يمشى بخطوات مرتابة نحو البحر.. صامتاً خائفاً هائماً غارقاً فى الحيرة.. شعر أن أثقالاً كبيرة يجرها بقدميه حتى يمضى ويجلس على المقعد الصخرى المخصص له.. وصل إلى مقعده بعد عناء طويل وكسل ليس له مثيل.. جلس، ثم وضع قدميه فى مياه البحر الباردة التى كانت - ومازالت - تعطيه دفقة نشاط باهتة تساعده حتى يكمل يومه.. تعطيه نشوة ملؤها التفاؤل والأمل للحظات قليلة بسيطة تجعله يجوب البحر خلال تلك العيون التى يغطيها الحزن، ها هى اللحظات قد انقضت وها هو قد عاد إلى سجنه الاختيارى.. أخذ يفكر كالعادة لماذا تغير كل شيء؟ حتى نسمات البحر.. لم يتغير مكان شروقك

وغـروبك أيتـهـا الشـمس لماذا؟ لماذا لا تبـتـعـدين عن طريقى.. وتتركى ضوء القمر يضىء عتمة ليلى وظلمة قلبى. لماذا أبعدنى شعاعكِ البراق؟ خذيه اخفيه عنى أرجوكِ.. بعد برهة من الزمن عـاد وتجـول مع أمـواج البـحـر لكنه فى هذه المرة أخـذ يدندن «شدوا الهمة شدوا الهمة» توقف فجأة وقال: آه ما بالك يا قلبى تنادينى وتطالبنى العـودة مـرة أخـرى إلى ذكـرياتى ألا يكفى ساعات الليل لإعادة شريط الذكريات المؤلمة؟ ما خطبك؟ أرجوك كف عن هذه المطالبة.. أرجوك يكفينى ألما. أتريد أن أعود لتذكر تلك الأيام التى طردت فيها من عملى؟ وبعد.. ماذا بقى بعد أن طردت من عملى عنوة؟ طردونى بحجة أننى أتطرق إلى مواضيع خـارجـيـة خـلال الشـرح وأسىء كـثـيراً لتـاريخك أيهـا البـحـر.. لتـاريخك يا بلادى.. لتـاريخ العـروبة والعـرب.. آه شل لسـانى وتوقف مركب الطموح عند حدود اليأس.. غادرت هذا المركب ولم أفكر فى ارتيـاده مـرة أخـرى لا.. لا.. دمـوع لا.. لم تسـقط أى دمعة، بل خرجت من تلك العيون الذابلة نظرات تحقد على هذا العالم دون استثناء.. لم يدم هذا طويلاً بسبب صوت رقيق شق هدوء المكان.. قطعت وئام صـمـت حـسـين قـائلة : كـفى كـفى

ارحمنى ارحم أيامًا جميلة عشناها معاً، ارحم أحلامًا نسجناها معًا.. ارحم.. لماذا لم يرحمنى الزمن؟ لماذا لم تساعدنى رمال هذا الشاطئ الذى جعلنا منه قلعة جميلة بنيناها بعد أن مزجنا تلك الرمال بماء حبنا وصدقنا وصراحتنا.. لماذا؟.. لماذا لا ترحم نفسك؟.. قولى لى كيف؟ وأنا على وشك أن أطلب الصدقة من الناس، ذهب عملى لا توجد أى وظائف أخرى..

لماذا ضاع عملك؟ لسانى الذى يرفض أن ينطق بأشياء ينكرها القلب والعقل.. قالت مقاطعة: أعرف يا عزيزى لكن حاول... حاولت أن أعود للعمل لكن دون جدوى... لا.. أنت ضائع فى عالم كل ما فيه مبادئ وكلام دون عمل.. أنت تتجول فى هذا العالم لكنك تلوذ بالفرار عندما يقول لك أحدهم افعل اثبت.. يكفى أنا هارب من المواعظ واللوم وها أنت تلاحقيننى بتلك الكلمات التافهة.. كلا إنها ليست تافهة لماذا تلوم أخاك عندما حاول الانضمام للمطالبة بحقوق الفدائيين؟ لماذا تلوذ بالهرب عندما تسمع صوت الرصاص؟ وفى اليوم التالى تكتب المقالات التى تحث الناس على الصمود والوقوف فى وجه الدبابات..! لماذا تحطم أجمل وأعظم الكلمات التى تزرعها فى قلوب وعقول

طلابك؟.. من أجل الوطن والحرية والاستقلال وحب العودة الحقيقية.. تزرع فيهم رفضا قاطعاً للذل والوهن والهوان تحطمها وتنكرها أمام تحقيق من المدير.. لماذا تمنعنى أن أحدثك عن المظاهرات والعمليات؟.. تبدأ الدموع تنزل على وجنتيها يرتفع صوت أنفاسها تخرج تنهيدة وتقول بصعوبة كأنها ضجرت من الكلام قل لى أتوسل إليك.. أمعقول أن تكون بليد المشاعر إلى هذه الحدود؟ أمعقول هذا؟ لا.. لا يا وئام لا يكفى.. لا أحد يعرف أننى عانيت الكثير ومازلت مرة أخرى «تقاطعه»: لست أنت وحدك الذى تعانى.. كل طفل رضيع يعانى، كل أم رءوم، كل شيخ هرم، كل امرأة.. نعم لكننى تحملت فوق طاقتى.. فى سنة ١٩٧٣ فقدت والدى وعشت يتيماً، ومع عمى شاركت مع رجال المقاومة فى العريش كان عمرى يومها خمسة عشر عاماً.. لكن كان بيننا خائن وبسببه قتل الزملاء الأوفياء وبقيت وهذا الصديق الخائن.

يا لها من معاناة عشتها. مذبحة شاهدتها.. دافعت لكن دون جدوى، وها أنا أظلم من قبل أعز الناس على قلبى من ابن عمى، يقول عنى خائن وأطرد من البيت وأتشرد، وأنا مازلت طالبًا

عانيت الكثير.. نمت على الطوى.. جلست على الأرض.. لاحقتنى وحوش الخوف والألم، لكننى قاومت ودخلت الجامعة والتحقت بجماعة أخرى وشاركت فى عمليات عدة لكن شبح الصديق الخائن لاحقنى.. أصبحت عنصراً شاذاً.. تم نقلى لجامعة أخرى وتركت هذه الحركات وبدأت بكتابة المقالات ولسوء حظى فقد تجرأت فى إحدى مقالاتى وكتبت بحرية مطلقة... ذكرت معلومات سمعتها كان علىّ أن أحتفظ بها لنفسى.. آه كم كان صدى هذه المقالة.. أرغمونى على الاعتذار وأرغمونى على الخروج من الجامعة.. لم يكتفوا بذلك، بل أساءوا لسمعتى أكثر وأكثر.. وآه.. سجنت.. تبدأ الكلمات تنبض فى حلقه وتبدأ الدموع بالنزول على خديه ببطء شديد.. حارق.. قاتل، كأنها سكون ليل شتوى مظلم.. يطلق صرخته تشق عنان السماء.. يكفى أرجوكِ لا أريد الرجوع إلى ماض يحمل لك رهبة وخوفًا عظيمين.. لا لا لا أريد.. إنه مؤلم يؤجج نيران الحقد والكره فى داخلى.. اذهبى اتركينى وحيداً أصارع جوعى وألمى وجبنى اذهبى.. لا لا يا حسين، لا أعرف ماضيك لكن ذلك لا يعنى نهاية الحياة.. ما زالت قلوبنا تنبض.. ما زالت ضمائرنا تتحدى

ظلام الأيام ما زالت أرواحنا تأمل خيراً فى أيام قادمة... قم فأنا قد سئمت الجلوس والنظر إليك.. سئمت حقاً أرجوك ماذا ستفعل لابن قادم لك من عالم الغيب؟ يريدك والداً قوياً شجاعاً ولا يريدك هشاً جباناً؟ ماذا ستفعل بشمعة وهبنا الله إياها؟.. أتريد أن تطفئ بريقها وتبقى على ضوئها الخافت المحزن؟ «تقولها وعيناها الرائقتان تغرقان فى بحيرة الدموع».. أم أنت ستبنى له سريراً من الخوف والجبن والحقد والكره؟ أم أنك ستتركه لوحوش الزمن تنهش من لحمه بسهولة؟.. أم أنك ستتركه فى مهده يلهو ويلعب وعندما يبرد يركض إلى حضنك وصدرك ويأخذ منها الحرارة التى تعطيه جرعة كبيرة يقاوم بها أياما مازالت فى علم الغيب.. ماذا.. ماذا.. هل أنت حامل؟.! حامل آه تكاد الدنيا لا تسعنى فرحة.. يكاد قلبى يرقص ويقفز.. تكاد شراييني تنفجر لتخرج نبعاً جديداً من دم مصرى لطفل عربى.. يصمت برهة من الزمن.. آه حامل.. حامل.. امرأتى حامل.. أيها البحر سيصبح لى طفل.. نعم يا وئام ولد أم بنت لا فارق عندى لأننى سأعلمه كل شيء.. سأطبق مبادىء لماذا.. لماذا لم تخبرينى من قبل؟ لماذا تركتينى وحيداً صريع الخوف

فاقد الأمل.. إنه طفل سيشرق لى وحدى، لا، بل للعالم كله.. إنه وليد المجد والحق.. آه سأجعله طفل البحر يتعلم منه كل شىء «التحدى الشجاعة القوة والعزة والجمال وشموخ أشجار النخيل الباسقة».. يضم وئام إلى صدره الملتهب ويجلسان على البحر يجمعان أصدافًا جميلة من شتى الأنواع والأجناس ويصنعان بيتاً صغيراً لمهدى الأمة المنتظر.. عندما أصبحت الساعة الخامسة أمسك حسين يد زوجته وانطلقا يمشيان فى طريقهما وسهام الأمل والتفاؤل تنطلق إلى كل شىء يحيط بهما.. انطلقا وأشعة الشمس تعانق مياه عالمهما.. قال حسين: المقعد الملوكى.. اسمعى يا وئام.. لن أتركه أبداً سأعود وأجلس عليه سوف أتحدث مع رمال الشاطئ التى تحيط بالمقعد.. ومع أمواج الأمل التى تغسله فى كل مد لكن بعد أن أحرث أرضًا وأزرع حباً وينبت لى الله زرعًا.. لن أعود وحدى، بل سيكون معى طفلى خالد وأبناء خالد وحفدة خالد.. يضحك ويمضى فى طريقه بجانب أم خالد.. صدقاً إنها أم خالد.

نشرت بجريدة الأهرام، ١٨ أبريل ١٩٩٩.

والدها يعمل فى بلد آخر ليدخر شيئاً لبقاء هذه الأرض.
دفاتر تجار الحى الخاصة بالديون امتلأت باسم أسرتها، وهى
تقوم بكل شىء تنظف البيت.. تعمل فى الحقل .. تتعلم فى
الثانوية، وتحب وتنتظر بملء شوقها لحظة سيتحطم السد
الزمنى الذى يفصلها عن بزوغ فجر السنة القادمة التى
ستأخذها إلى المدينة.. فتكمل تعليمها وتراه كل يوم.. حملت
الفأس.. غرسته فى التراب.. ثمة شىء يحول بينها وبين قدرتها
على تجميع قواها.. لكنها كانت تحس بالأمان.. وهى تمزج
بينهما.. فحبيبها هو اللقمة التى ينتظرها أخوتها الصغار..
هكذا الحياة يا زانة ولابد فى النهاية أن نصل إلى ما نريد.. هو
قال لها ذلك فاقتنعت بتلك الفكرة، ثم طردت اليأس.. لم تدر لم
سيطر عليها شعور سىء نحو المدينة التى حلمت طويلا أن

تسكنها؟!!.. تذكرت كلامه حين تحدثا فى هذا الأمر.. فى المدينة يا زانة يكاد الإنسان لا يعرف نفسه.. إن حينا أأمن وبفارق كبير.. لم توافقه وقتها رأيه.. ولكن الآن عندما نظرت إلى كفها ورأت بعض قطرات الدم تتسلل عبر شقوقه أدركت تماماً معناه.. ابتسمت عيناها بفرح قاسمتها إياه حبات العرق التى ولدت فى جبينها.. وكبر حبها لأرضها وله فى تلك الساعات الجميلة.. فصار الفأس يسرى فى أحشاء أرضها برتابة لم تعدها من قبل.. الطقس بدأ يحزن وكاد ينام وجه السماء .. كتلة كبيرة من السحاب غطت القسم الذى تعمل به.. أحست بالخوف كاد خوفها أن يتحول لبكاء لولا أن سمعت صوت أمها.. «هيا يا زانة أحضرت لكِ الغداء» وعلى بساط من عشب بدأت الصفرة تشق عباب خضرته تتناول غذاءها.. فتاة تعمل فى الحقل.. نظرت زانة إلى أمها خيل إليها أنها تلج داخل عينيها التى سرت تقلبان الحقل لتلقى الشجرة لم يشب خضارها.. لم تعرف ما هى تلك الشجرة لكنها انشدّت بكل ما تحمل من فضول إليها.. فتدلت منها ثمرة غريبة وكبيرة لكنها مثيرة.. مدت يديها.. أرادت أن تقطفها فتسلل من خلفها سنجاب صغير يضحك.. أحست

بالأمان لرؤيته.. ابتسمت له.. قفز السنجاب إلى كتفها.. شعرت بغباره الذى لامس خدها يضحكها.. قفز إلى الأرض.. نظر إليها وسار يثب متسلقاً الشجرة.

عرفت أنه يريدها أن تتبعه ففعلت.. اختفت تلك الثمرة ولاح مكانها قصر كبير.. وقف السنجاب أمام بابه ونظر إليها وابتسم ثم دخل.. دخلت وراءه فرأت سنجاباً آخر يحمل فى يده قلباً أخضر ويعلقه على الجدار الذى كاد أن يكون بياضه سحراً.. صوب السنجاب بيده.. لقد بدأت تفهم ما يريد أنه يطلب منها أن تمشى لوحدها وكأنما انتهت مهمته.. أطلقت رجليها بنشوة.. فتح بابًا آخر.. رأت من خلفه ظلا يشبه ظله يحمل فى يده قطرات الدم التى تسللت من كفيها قبل قليل.. ويناولها لأبيها المسافر ويده الثانية تحضن أخويها الصغيرين.. قالت بفرح انتظارها: «إنه هو.. أرادت أن تركض إليه.. تحضنه وتقبله وتقول له: «إنى أحبك»، لكن أمها أغمضت عينيها، فتدحرجت على خدها دمعة أحستها كالزجاج. هزت رأسها بحسرة.. تمنت لبرهة لو أن لأمها عينين كالبومة.. تناولت رغيفاً. قسمته قسمين وقالت : «يبدو أن المطر يقترب يا أمى».. سنذهب إلى البيت.

مجلة أدب ونقد، مارس ١٩٩٩، نشرت بجريدة البلاغ، أغسطس ١٩٩٩

تركت قـريتك ذات الضـــجـيج الناعم في النهـار والبـاردة والهادئة في الليل وأتيت إلى المدينة حيث دخلت إلى البيت الذى تربيت فيه، كل شيء في مكانه لم يتغير، نظفت الأثاث من الغبار تعبت في تنظيفه .. كل شيء يذكرك بطفولتك البريئة في هذا المنزل الخاوى من الأحاسيس والمشاعر.. حاولت أن تمد يديك نحو زهور ذكرياتك تقطفها من رياض صباك التى أينعت وملأت البيت بعبيرها الفواح.. نسيت إزالة الغبار عن صورة أمك التى ربتك واعتنت بك وأخلصت لك.. والتى كان المرض قد التهمها بجرعات متكررة.. بكيت كثيراً.. جفت مآقيك.. وأخيراً اعترفت بدورة الأيام.. لكنك اليوم أصبحت مهندسا يفتخر بك كل زملائك حتى رئيسك في العمل أحبك وعرض عليك الزواج من ابنته.. رفضت بشدة وعنف.. أزلت الغبار المتبقى عن الصورة التى

علقت على الحائط.. كانت عليها قذارة مبهمة وظلالاً سوداء..
أزلت شبكات العنكبوت الواهية بنفخة باردة منك فتطايرت معها
ذرات الغبار.. قبلت وجنتى أمك.. تمنيت لو أحسست بتعب يدب
فى أوصالك.. أطفأت الأنوار الباهرة.. أبقيت على ضوء خافت..
اتجهت نحو سريرك استلقيت عليه.. سمعت أنيناً.. أشتاق إليك
وأحب أن أجدد صداقتك القديمة.. حملقت فى السقف التى
توسطته دوائر الجبس المذهلة.. فجأة شعرت بحرارة الأفكار
وهى تجيش بأمواج متتابعة ومتلاطمة.. أغمضت عينيك محاولا
تسليمها لسلطان النوم.. ولكن أفكارك وذكرياتك أجهضتك
فتقلبت على سريرك يميناً ويساراً.. فتحت عينيك على مسدس
خشبى كنت تلعب به أيام طفولتك فذكرك بها.. تلك المرحلة التى
كنت فيها مشاغباً فى الصف .. شكلت عصابة كنت أنت الذى
يأتمرون بأمرك.. ولكنك كنت الأول فى صفك.. وكثيراً ما أخذت
الثناءات والتصفيقات الحارة من زملائك فى الصف تكريماً
لاجتهادك ونشاطك وتوقد عقلك.. أدبر السهاد من عينيك..
غشيتك شياطين الأفكار المقيتة.. ألقت بحبائلها عليك.. صرت
ككرة تتقاذفها أقدام اللاعبين.. وفى كل مرة كنت تذهب فيها

بصحبة أمك إلى مجلس الآباء.. كانت مزهوة بك.. ولكن كان زميل لك يحضر مع والده.. أمك أخبرتك أن والدك قد استشهد في الحرب.. فرحت في قرارة نفسك بأن والدك شهيد.. افتخرت به أمام زملائك.. كبرت وكبر تفكيرك.

نشرت بمجلة «النهار»، ٢٤ أكتوبر ١٩٩٩.



وجه آخر للبؤس !!

إحساس ما يجعلك تعتقد أنه لسبب ما غامض بعض الشيء سيكون هذا اليوم أشد بؤساً، وأنت تبدأ يومك يتملكك هذا الشعور والذى رغم كل شيء كان له سطوة كبيرة عليك. أنت تتناول أوراقك وحقيبتك لتغادر.. ليس مهما لماذا تغادر.. لكن عليك ذلك. وهكذا تتأمل وجهك في المرآة عند الباب قبل خروجك.. العيون نفسها التى تنظر بشكل غريب تمتلئ بألوف من الأشياء وتتوقف عند شيء واحد.. لماذا تنظر هكذا؟ ليس مهما أن تنظر.. تتفرس بشكل مدهش في الوجه، حتى الأنف غدا مألوفاً جداً لكن دون جدوى تتفحصه كلما نظرت هنا في المرآة مازلت أن تتحسس جلدك.. تلمس رأسك.. يراودك شعور بالاشمئزاز وأنت تفكر أن الجميع يرونك.. تفتح الباب وتخرج.. شيء ما يجعلك تفكر إلى أين أنت ذاهب؟!! هل تعى أنت ذلك؟

هل أنت متأكد أنها الطريقة الصحيحة وكيف لا تخطئ.. ليس مهما إدراك كل شيء.. إنها مسائل كيفية.. لقد تناولت فطورك.. ليس مهماً تناوله، لكن لم يكن هناك ثمة شيء يجعلك تفكر فى كيفية الذهاب بدونه إلى العمل.. أنت ذاهب إلى العمل إذن.. تلاحظ بائع الجرائد على الرصيف المقابل.. تقطع الشارع بكل ثقة.. ليس ثمة ما تحزن عليه لم يحدث شيء.. تبدو متأكداً من مرورك بسلام تفتح المحفظة هناك بعض المال.. تأخذ ثمن الجريدة فقط أنت لم تتأكد إن كان هذا المال لك.. ثمن الجريدة لم يترك الانتباه للنقص فى المال.. تقف فى الموقف.. لقد أصبح غريباً ومألوفاً.. تتحسس ساق المظلة تنظر إلى السيارات التى تمر.. إنها مليئة بالناس ممن لا تعرفهم، إنك تفكر فى مسائل غريبة لو تستطيع أن ترافقهم إلى بيوتهم، أو لو أنك تعرفهم جميعاً.. تبدو الفكرة مضحكة.. لكنها منطقية جداً لديك وجديدة. وتشعر باتساع متاهة علاقاتك لكن.. لكنه تفكيرك دوماً كان يتوقف عند من تعرفهم.. تفتح الحقيبة.. هل الأمر مهم؟ ترى الجريدة، تتذكر لم عليك انتقاء الجريدة؟ وماذا ستقرأ فيها؟ هل الأمر يستحق؟ إنك ترى أن العالم مثير لو عرفنا الأخبار أولاً..

ماذا هناك أيضا؟ تتقلب الأوراق وأنت تتحاشى سماع الكلمات من هذه وذاك.. أنت تتصنع كعادتك الهروب من النظرات.. هذه بطاقة اشتراك فى المكتبة العامة بالعريش.. تتذكر إن كنت زرتها.. تفكر أنها ستفقد صلاحيتها، فهل استخدمتها بشكل جيد؟ تبدو عليها صورة من المنطقى جداً أنها لك، إنها تشبهك.. أنهاصادرة فى عام ٩٨ وهو هذا اليوم.. آه تتذكر أى يوم هذا.. لقد تأخرت، ولم يأت ذاك الأتوبيس الذى تنتظره، آه لقد تذكرته أخيراً.. هل أنت بخير؟ شيء ما يجعلك تشعر بفراغ قاتل.. يجعلك تنكر علاقتك بالأشياء.. تراودك الأسئلة.. هل عليك أن تستيقظ؟ هل عليك أن تأكل؟ وهل عليك أن تخرج للعمل؟ أنت مستعد الآن وللحظة أن تهرب مما يراودك؟ لكنك تشعر برغبة فى البقاء هكذا مستكيناً إلى أن تتحرك.. ها هو الأتوبيس يوقظ دهشتك واستسلامك.. ها أنت تصعد.. تضع حقيبتك فى المقعد المجاور.. إنه فارغ.. تنظر إلى رجليك.. انهما متصلتان بجسمك لكن شعورك بهما يتضاءل.. أنت تفكر ما الذى يجعلك متأكداً إنهما رجلاك.. ما الذى يجعلهما تملكان الأهمية وأنت فقدت للحظة الإحساس بهما.. شعور رهيب تأكد به شعور سائد،

تتساءل: لماذا لا تنزل فى أى مكان؟ هل من الضرورى أن أنزل هنا؟ ولكنك تنزل.. هل نزلت فى الموقف الصحيح ؟

اتجاه إجبارى !!

وضعت رأسها المتعب على وسادتها ولم تلبث كرات شفافة صافية حارة أن تدحرجت على خديها وأغرقت كفيها اللتين تعانقان وسادتها البيضاء الناصعة.. غامت عيناها العسليتان وهما تئنان تحت وطأة الرموش المبللة الصبح يقترب من الوجوه ونظراتها المسمرة كما هى لم تتغير منذ المساء - وتتكرر الكلمات والجمل وتزدحم داخل هذا التجويف الذى يسميه الجميع رأسًا «عالمى أنت.. حياتى كلها.. قلبى وعقلى وقلمى بين يديك» لكن عقلها يرفض كل هذه الجمل والمفردات.. هناك على ذاك المقعد الخشبى الأخضر العتيق فى الحديقة الكبرى كانا متلاصقين.. الجو يميل إلى ربيعى.. نسمات رقيقة لطيفة تداعب شعرها البنى المسترسل.. تزداد قوتها فى بعض الأحيان لتعبث بخصلاته فتدغدغ صنع الصغير.. يتلو على مسامعها أفكاره

المعتادة.. يطالبها باتخاذ قرار بشأن علاقتهما.. تضيق الدنيا فى عينيها الواسعتين تنكمش كما الخائف الملتاع.. يكبر الهم فى قلبها ويتمثل لها الفرح الحقيقى إنسانا خيالياً لا تراه إلا فى أفلام الصغار.. ولا تسمع عنه إلا فى الأساطير والقصص الخرافية.. ذلك الإنسان المنقذ الذى يعرف متى يأتى ومتى يذهب.. متي يفرح ومتى يحزن.. أين يكون وجوده ضرورياً وأين ينعدم.. يعرف أى القلوب يلج إليها.. وزيها يبتعد عنها.. يستمر تدفق كلماته الجميلة.. يرسم لها عوالم كثيرة حلوة.. تتلذذ بعوالمه البراقة ينساب صوته بعذوبة فى حناياها وهو يناجيها.. هذا ليس رأيى الشخصى فقط إنه رأى الناس حولى.. أصدقائى.. الكل يشجعنى على علاقتى بك.. أرجوك فكرى قليلاً بهذا الإنسان الغريب الذى أصبحت وطنه.. صدقينى إنك وهذه المدينة شىء واحد.. أنتما وطنى انتمائى.. دفء الاستقرار.

يتحرك جسدها بتثاقل فوق الفراش عيناها مغمضتان.. تريد الحفاظ على أفكارها خشية الهروب.. هل هى حقاً تحبه ؟ وإذا كانت تحبه فلماذا التردد بالارتباط به؟ هل هى متعلقة به لأنه كان سبب شهرتها؟ أم لأنه يحمل فى جنباته كل ذاك الدفق

العاطفي الصادق والمخلص؟ أم لأنها طالما حلمت بالزواج من شخص مهم مثقف ومتفهم ولا تستطيع التنازل عن حريتها الآن؟ وهو إلى متى سيبقى على حاله؟ لكل شيء نهاية ولابد أن ينفد صبره يوماً.. وتعود بأفكارها إلى المقعد العتيق المطل على البحر، هناك حيث استمر النقاش العقيم بينها وبينه وبكل ما يحمل لها من حب يدعوها إلى عالمه: تعالى إليّ.. إلى عالمي الجميل والمتواضع. أنت تنتمين إلى هذا العالم وليس إلى سواه. تحلي بالجرأة ولو مرة.. اتخذي قراراً.. تعالي إليّ لنبني مجد الكتابة معاً ونعيش الحياة بكل أبعادها.. أخرجي من دائرتك الضيقة تطلعي للمستقبل ولا تدعي الجزئيات الصغيرة والكثيرة للحياة تستهلك ما لديك. اكتبي عني.. كتبتي قصصاً كثيرة لم أكن أنا أحد أبطالها.. أليس هذا مستغرباً؟!

تقول لنفسها: كلامه مقنع جداً لكني عاجزة عن اتخاذ القرار، وتقول بعصبية مفاجئة: أرجوك افهمني.. هذه أنا، إن أردت البقاء معي فابق وإن أردت الرحيل فافعل لا ألومك أبداً.. من حقك أن تفكر في الاستقرار والأسرة.. ماذا أفعل؟ ما تزال في ذهني أمور كثيرة لم أجد لها حلاً بشأنك.. لا أستطيع اتخاذ

أى خطوة الآن.. أنت إنسان حساس وكاتب عظيم تمتلك قلباً يعرف الحب بجنون، ربما لن أجد يوماً من يحبنى كل هذا الحب. الجسد المتعب ما يزال يتقلب.. غطاء السرير ينكمش.. والشرشف الرقيق ينزلق عن جسدها الغض المتعطش للحياة.

هدوء فظيع لا يقطعه إلا حفيف ثوب نومها.. توقفت آلة التسجيل عن العمل دون أن تحس بالمعزوفات الموسيقية الرقيقة التى ترافقها كل ليلة، دوى سيارة القمامة فى الخارج يشق الليل وأصوات جامعى القمامة نقلتها من عمق تفكيرها.. لم يطل مكوثهم.. كان صوت السيارة الذى يتلاشى شيئًا فشيئًا وهى تغادر الحى آخر الأصوات التى سمعتها ليلتها قبل أن تخلد لنوم عميق.

قهوة بنكهة امرأة

أعبث بأصابعى.. أشبكها معاً.. أحركها برتابة.. وأسير وحدى.. أردت لحظات أسرقها من هذا الضجيج كى أكون وحيداً.. أعانق خيالات محزنة وذكريات تتشبث بى فلا تبرح ذاكرتى أبداً. كنت أنساب بخطوات تتماشى وإيقاع البحر الممدد جانبى.. أضىء دمعاتى فيه أعمد روحى به.. لكن البحر بعيداً يعتنق كآبة وحزنًا غريبين.. رحت أتلمس فى وجوه الذين حولى سبب حزن البحر.. أتوقف براحلتى فوق تقاسيم وجوههم.. هؤلاء يرقصون تحت شجرة نخيل مبللة أوراقها بدمع البحر، وأطفال يكركرون فرحاً كلما زلزل الموج قصوراً قد بنوها فوق الرمل الناعم.. وتلك .. ما تلك – فتاة – امرأة؟ وماذا ترتدى؟.. أحقا ترتدى شيئًا؟ تسير بغنج وتؤدة تلاحقها الأعين – نظرات تأكلها.. إعجاب – رغبة و.. وهى تخترق أزواج العيون.. تمشى

بمهل تلاحقها الكلمات الرخيصة فتبتسم بوقاحة لا.. بل ببلاهة.
وهناك شيء فى جانب الشاطىء.. شيء كبير - كبير جداً..
تفرست فى ملامحه الغامضة ما هو؟.. نورس أبيض كبير - أم
ملك من ملوك البحر.. مرت اللعوب من أمامه متعمدة.. تحاول
اجتذاب نظراته.. لكنه ظل جالساً ما تحرك وعيناه غارقتان فى
كتاب يقرؤه.. كتاب .. تهاوى إلى مسامعى صوت ناعم يهمس
فى أذنى بدفء يطغى على وشوشات يناير الباردة.. وشردت مع
ذلك الصوت الدافئ.. آه إنها فيروز.. إنه صوت فيروز ينبعث من
مكان قريب يختلط بصوت أغنية راقصة لكنه ظل واضحاً قويا
دافئاً.. فأذوب مع كلماتها.. أتوحد مع كلماتها.. أصبح لحناً..
مقطعا من أغنية.. تحركت عيناى بحركة لا إرادية الى تلك
الزاوية المهيبة إلى حيث يؤدى النورس الأبيض صلاته.. إلى
حيث يجلس ذلك الشاب الصامت.. وبحثت بنظراتى عن تلك
اللعوب.. لابد أنها تلهو بعيداً بعد ما يئست من هذا الصامت
ولو بنظرة.. كانت وسط البحر تركض.. تسبح.. تضحك.. كانت
أصداء ضحكها الأجوف ترتد على أمواج البحر.. تستبيح
لنفسها عذرية مياه البحر.. والمياه تهدر تموج تعلن ثوراتها ..

رفضها.. لكنها ما زالت هناك فى قلب البحر خنجراً ينغرس فى أعماقه والأيادى المتعطشة للرغبة تتقاذف جسدها من تحت الماء.. تملكنى شعور بالاشمئزاز.. وعدت بنظراتى إليه كان ما زال يقرأ.. لو أعرف ماذا يقرأ ؟!!

أتعمد أن أسير من أمامه.. اقترف جلبة كى ينظر إلىّ.. لكنه لم يرفع رأسه.. لم يتطلع أبداً.. جلست فى مكان قريب منه.. لم يكن بينى وبينه إلا مسافة قصيرة.. بل مسافة طويلة.. طويلة جداً.. مساحات شاسعة من مشاعر كثيرة.. أشياء كثيرة، وحزن كثير.. كان يقرأ لو أعرف ما الذى يقرأه؟!!.. لو أطفئ فضولى قليلاً.. اقتربت بنظراتى من الكتاب.. لا شىء واضح .. يساورنى شك بأنه لم يكن يقرأ فى الكتاب، بل صفحات الكتاب هى من كانت تقرؤه!! تقرأ عينيه. أحاول أن أشغل نفسى.. أدندن مع أغنية فيروز التى تخترقنى.. تسافر إلى دواخلى.. «قديش كان فى ناس على المفرق تنظر ناس، وتشتى الدنيا ويشبه شمسيه وأنا بأيام الصحو ما حدا نطرنى». كنت منهمكاً جداً.. مشغولاً جداً.. لكنى أحسست بشىء يخترقنى.. بشىء يحرقنى.. رفعت رأسى فكانت هناك عيونها تحدق بى.. عيون تطفح بموسيقى

دافقة تتناغم وصلوات فيروز.. كانت هى الصامتة.. هل تراقبنى منذ مدة؟.. وهل كان صوتى عالياً وأنا أغنى؟ كانت لا تزال تنظر إلىّ.. تحدق بى.. عيناها قويتان .. تنشران موسيقى هادئة.. وملامحها السمراء تتشرب حزناً عميقاً.. عميقاً جدًا.. نظرت إليها وابتسمت .. كانت ابتسامتى واسعة صادقة.. ومشجعة.. لكنها ظلت محدقة بى.. تصلبت نظراتها.. وتجمدت تعابير وجهها.. فلم أستطيع فك لغز نظراتها.. ذوت ابتسامتى وانكمشت على نفسى.. فخفضت بصرى أحدق فى الحفرة التى أحدثتها فى الرمل الناعم. لم أدر كم مر من الوقت؟!! كم مضى؟!! وأنا أحدق فى اللاشىء.. كل ما أذكره حينها.. أننى حين رفعت رأسى لم تكن عيون هناك تحدق بى ولا عيون تغرق فى كتاب، ولا فيروز.. حتى لتغنى.

تمرد !!

أحست بالخدر يأكل ركبتيها، فأرخت ساقيها على سريرها الضيق التى كانت قد استلقت عليه منهكة منذ الظهيرة....كانت قد قضت ساعات الصباح فى تنظيف المنزل ككل صباح تكنس هنا، وترتب هناك.. هكذا بحركات تقوم بها دون تفكير وكأنها أدمنت صباحاً تعباً حتى الإنهاك.. بعد ذلك - وكطقس مقدس اعتادت عليه - انتقلت إلى المطبخ لتعد الطعام قبل أن يعود والدها عند الغداء.. بحركة كسولة اختصرت كآبة الحياة التى تعيشها.. سحبت جسدها الفتى لترتفع برقبتها على المخدة المرمية كيفما اتفق على طرف السرير.. وبكبرياء خبيث مالت برأسها وخفضت عينيها لترى وبفخر مصحوب بشخير من الرغبة الضيفين اللذين حلا مؤخراً على صدرها كقدر محتوم. أحست بخدر فى أعلى رقبتها.. فأعادت نفسها بحركة كسولة

إلى وضعيتها السابقة لتستقر عيناها مجدداً على سقف الغرفة نصف المظلمة.

كانت منهكة ووحيدة وعاجزة عن استجماع تفكيرها حول شيء بعينه.. كل ما كانت تستطيع أن تفعله هو أن تجول بناظريها أرجاء الغرفة وأن تتفحص الأشكال التى رسمها الفقر على السقف والجدران.. علها تجد شكلاً مألوفاً لديها، وأن تنطلق بخيالها فترى جدران الغرفة وقد تقاربت لتطبق عليها من كل الجهات.

قريباً يحل المساء.. والدها تناول طعامه واضطجع فى غرفته كوحش هدّه الجرى وراء فريسته.

ووالدتها ذهبت لتزور شقيقتها التى سيقت إلى عجوز لم تره من قبل منذ أيام قليلة.

تحركت الفتاة عن سريرها بحركة سريعة وقد مضت عيناها وأضاء وجهها.. كانت ترتدى فستانها الوحيد وكأنها تسابق الريح.

خرجت من غرفتها حافية القدمين على رؤوس أصابعها.. ومن خلال وريقات الياسمينا التى غطت النافذة بكاملها

استطاعت أن تراه مستغرقًا فى سبات عميق.. فتحركت بجسدها الفتى الذى أحسته ليس لها وببطء شديد إلى باب المنزل فتحته وخرجت.

كانت وقد مشت فى الشارع برعب يقطع أوصالها لا تمتلك أدنى فكرة عن وجهتها.. كل ما كانت تتيقنه هو أن الغرفة الحقيرة ستبقى فى داخلها إلى الأبد تلاحق كل خطوة من خطواتها.

عاشقان تحت الأشجار !!

مطر أيلول .. تهمس ورذاذ الخريف يتناثر حولها وينزلق على وجهها وشعرها المبعثر.. لنعد فقد يؤذيك المطر.. يهمس تنظر إليه.. تتمعن ملامحه الحارة هى هى.. لكنه لم يعد هو.. أشياء كثيرة تغيرت لا بأس. تتمتم .. تستمر فى المشى بمحازاته.. الشارع هو الشارع.. المقهى هو المقهى.. ربما تغير مكان طاولتنا.. الحديث هو الحديث.. بل أيضا تغير.. فقد كل نكهة.. ثمة شرخ فى مكان ما.. هل هو الزمن؟ أم الجرح العميق؟ خرجا من المقهى وقوة خطواتهما تنقر فى رأسها كانفجارات متتالية.. تهشم الصمت الذى يلفهما منذ أن خرجا.. فى العقل ضجيج وفى القلب ضجيج.. والشارع الملىء بالنخيل طويل شبه مهجور فى هذا المساء الأيلولى يزيد من توترهما وإحساسهما بالوحشة.

«ألفت».. يحاول قطع الصمت.. «ألفت» لا تجيب.. ينظر إليها برفق ويناولها منديلاً لتمسح ماء المطر المتدفق على وجهها.. تصعقها نظرة متدفقة من عينيه، للحظة تشعر أن ماساً كهربائياً مس جسدها.. هل لامست أصابعها أطراف أصابعه.. لا تدرى فقد ولت هاربة.. كان بالنسبة لها ولعقلها المراهق صورة لا تخدش.

«ألفت» يتردد الصوت وكأنه صدى لا تعرف من أى مكان يأتى!!

ودموع آلة المطر تثيره على وجهها.. الصوت يخترق أذنيها ولكنها لا تميز فيه صوت الماضى أو الحاضر...

«ألفت» أرجوك أن تفهمى.. «ألفت» أرجوك أن تفهمى.. يهزها بقوة.. الشارع شبه مهجور فى هذا الوقت.. «ألفت» أفهمينى لست أول من غادر هذه البلد ولن أكون الأخير ولكن .. ولكن ماذا ؟ ستظلين «ألفت»... ولكنك لم تظل ذلك الرجل الذى أحببته طوال هذه السنين، كحجر ترمى كلمتها الأخيرة فى وجهه وتشرد فى الماضى البعيد.. أنت متعبة سأوقف تاكسى.. تقف السيارة بمحاذاتهما، يصعد بهدوء وقبل أن يجيب على سؤال

السائق عن وجهتهما تنظر إليه بسرعة وتجيب.. إلى شاطىء النخيل.. وحيدان وسط العتمة إلا من بعض ضوء ترسله السفن من البحر. ثمة شيء يجب أن يقال، يحاولان انتزاعه وسط صخب التعب والعتمة والوحشة. يقترب منها بحذر.. يحيطها بذراعيه،.. ويضع قبلة ساخنة.

لقد عذبتك (تهمس).. تدفن رأسها في صدره بقوة.. تنهمر بضع قطرات دافئة.. تذيب صقيع وجهيهما الملتصقين.. يبتعدان كل عن الآخر.. ستسافرين وحدك في هذا الوقت المتأخر؟.. سأصل عند انبلاج الفجر.

المحتويـــات

صدر مؤخرا من هذه السلسلة

١٣٧- ١٤ ج .... محمد بخيت

١٣٨- أشياء تحدث يومياً .... دعاء عبد العزيز

١٣٩- يا عم عبد الله.. وحيد أمين

١٤٠-أوراد ليست منشقة.............................. مسعود حامد

١٤١- صيف المدن.. أحمد سليمان

١٤٢- أبدية الثلوج الملونة............................. نجلاء محرم

١٤٣- حضن المسك.................................... الطاهر شرقاوى

١٤٤- موال الصبر والليل........................... عادل صابر

١٤٥- احتقان .... ممدوح رزق

١٤٦- لماذا أنت دونهم؟!...................... عاطف محمد عبد المجيد

١٤٧- البحر كالعادة..................................... البهاء حسين

١٤٨- جسد بارد بلا تفاصيل........................ أحمد قرنى

١٤٩- مخلوقات الليل .... حسن عبد العال

١٥٠- ظل العائلة .... عيد عبد الحليم

* السلسلة غير ملزمة برد أصول الأعمال سواء نشرت أم لم تنشر.

* ترتيب النشر يخضع لاعتبارات فنية.

الشركة الدولية للطباعة

المنطقة الصناعية الثانية - قطعة ١٣٩ - شارع ٣٩ - مدينة ٦ أكتوبر

☎ : ٨٣٣٨٢٤٠ - ٨٣٣٨٢٤٢ - ٨٣٣٨٢٤٤

e-mail: pic@6oct.ie-eg.com